أسرار الآيات في خلق الإنسان والكائنات

إعـداد

حسن عابد



شارع جيهان - أمام بوابة الجامعة ت: ٠١٠٠٠٤٠٤٦

Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة كنوز المعرفة

اسم الكتاب: أسرار الآيات في خلق الإنسان والكائنات

إعـــــداد: حسن عابد

رقم الإيداع:

الطبعه الاولى ٢٠١٢



الإهداء

إلى كل من أزكاه الله ﷻ وهداه فأنار له السبيل وبصَّره، وكَشَفَ الغطاء عن عينيه فأبصرتا ما حوله من الآيات، ولأسرارها تاقت كلتاهما استيعابًا فاستوعبت، ولهذا الأمر الخطير بحثت وتفحَّصت، ولعظيم خطر الآلاء فطنت وأدركت، فأرسلت إشارات فهمها ووعيها إلى العقول والحواس ففهمت بدورها معاني الإشارات؛ فسجدت لربها تعظيمًا وسبَّحت؛ متفاعلة مع نداءات قلبٍ أنار الله ﷻ بصيرته؛ فباتت معه في خشوع العبودية لله ﷻ ترفل خضوعًا؛ رجاء نوال رحمته حبًّا واصطفاءً، وتقربًا إليه فضلاً منه؛ هبة ومنَّة!!..

إلى كل من يخشى فجأة الواقعة المؤكَّدَة بخروج نفسه - أوْ قُل - إخراجها بالموت إقبالاً على الآخرة التي لا يوجد فيها من نُزُل ومقرٍّ إلاَّ دائم العذاب في دركات النار، أو النعيم الدائم في درجات الجنات، في قرار مكين؛ ينعم أهلها بأمان القرب من رب العالمين ﷻ!!..

إلى كل من يترقب يوم الحساب، ويخشى هول العرض على رب الأرباب.. في خشوع وذِلة.. ورهبٍ وخشية.. ويحسب لموقفه هذا أي حساب!!.. ويعمل استعدادًا لسؤاله أىَّ عمل!!..

إلى كل من يأمل النجاة من سوء الحساب ويرجو حسن الختام..

إلى كل الطامحين إلى سماع بشرى الفوز بحسن الجوار؛ يوم يأتيهم رسل ربهم يعالجُون نفوسهم توديعا للحياة الدنيا التي تعودوها واطمأنوا إليها ردحًا من الزمان..

إلى كل من تيقن قدوم الموت لا محالة؛ ليأخذ به إلى الآخرة.. فيلج بابها في انقطاع عن العمل.. على غير أمل في عودة تراوده؛

كمراودة الظمآن للسراب؛ متمنيا أن لو تكون في الإمكان حتى يتمكن من إصلاح ما كان قد قدَّم في حياته الدنيا من فساد أو إفساد!!..

إلى كل من يتمنى أن يكون من أهل اليمين الذين هم في دار السلام يُنعَّمون؛ إن لم يكن من أهل السبق والاجتهاد لينال حظ منزلة السابقين الذين هم{ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾} [القمر: ٥٥]، مقرَّبون من الله ﷻ وفي مَعِيَّتِه مكرَمون!!..

إلى الذين وجلت قلوبهم عند ذكر الله؛ فيخشون عذابه، ويشفقون من عتابه، ويرجون نوال رحمته ساعة اللقاء يوم يبعثون!!..

إلى الذين يتطلعون بهمة وعزيمة إلى التنعم برضا العيش في دنياهم مهما وقع عليهم من أذىً أو أصابهم من مصاب أو أحاط بهم من ابتلاءات؛ فلا هم منها يتذمرون أو بسببها يسخطون، لأنهم متأكدون أن ما كان من وقائعها إلا قدرٌ مقدور، وقضاءٌ مقضيٌّ من العزيز الغفور!!.. وهم مع ما أصابهم إلى فعل الخير يتطلعون، وفي عمل الصالحات يجتهدون، وإلى نعيم الآخرة يأملون!!.. ينؤون بأنفسهم عن سبل الغي والضلال؛ راجين النجاة من نار الآخرة حتى بها لا يعذبون، متمنين أن يكونوا مع الناجين الذين يتحملون في رضًا معاناتهم متسرين بقولهم:{ قُل لَّن يُصِيبَنَآ} في هذه الحياة الدنيا من مصائب " إِلَّا " يقابله:{مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا} [التوبة: ٥١]، في الآخرة من ثوابٍ ونعيم!!..

إلى الذين يعلمون علم اليقين، ويتأكدون في غير شك أو ريْب أن كل شيء كان في هذه الحياة الدنيا، وما قد يكون، وما هو كائن إلى يوم الدين زائل لا محالة؛ زوال حق ويقين!!.. وأن{ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: ٦٤]!!.. كما أخبر بذلك أصدق

القائلين.. الله رب العالمين..

إلى كل هؤلاء جميعًا أقدم هذا البحث الغالي والثمين فيما حوته ونبهت إليه آيات عظيمة من القرآن العظيم، اشتملت على خطر عظيم.. وتخصصت غاية التخصص في تبيان عاقبة الذين هم في مجالات وصروف الحياة الدنيا من الأعمال الصالحات ومحاسن الأحوال وصفاء الضمائر يسعون ويجتهدون.. ومن هم على طرق الإغواء والضلال في سيئ الأعمال وخبائث الأحوال في إمْر الضمائر منهمكون!!.. وكذلك الذين هم عن طريق الحق بالكلية معرضون، وتأبَّوا على الصراط السوي؛ فاتخذوا الكفران والتكذيب لهم منهاجا، وجعلوا الإلحاد والنكران لهم دستورا؛ غير آبهين بما نصحهم به الناصحون، وذكَّرهم به المُذكِّرون.. وبما إليه - من التفكُّر في آلاء الله وقدرته ﷻ - أرشدهم المرشدون؛ لعلهم بوحدانيته ﷻ يشهدون!!..

إلى كل المُتَـرَدِّين في دهاليز اللهو والضلال يتخبطون، وفي وَهدات الشرك العفن ساقطون؛ فاتخذوا من أهوائهم آلهة وباتوا على ذلك متباهين؛ واتخذوا ممن خلق أندادا؛ يحجون إليها، وبالتعبد لها يتوجهون مخلصين؛ أحياءً كانوا أو تحت التراب ميِّتين!!..{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ } [البقرة: ١٦٥]، وصدق الخالق: ﷻ{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ } [القصص: ٥٠]،{ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا } [الفرقان: ٤٣]..

إلى كل من أعلن بالقول إيمانه؛ وهم على شائنات الأعمال

يترددون، وبفعل السيئات والمعاصي يتلذذون، وفيها منغمسون؛ لا يتأبون على إغراءات الدنيا ولا عليها يتمنعون!!..{ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ} [الحديد: ٢٠]..{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ } [لقمان: ٣٣].. إلى كل هؤلاء جميعا.. كان هذا التبصير اللازم والتبيان الواجب لما هم مقدمون عليه من عظيم الأمر وخطير النزل والمستقر؛ يوم يقوم الناس لرب العالمين.. لعل من أشرك منهم إلى الرشد يثوب، فينجو من غضب الله وعذابه إذ إليه يتوب.. ولعل العاصي منهم يرتدع وعن فعل السوء يقلع، وإلى الطريق المستقيم يعود!!.. ولعل المحسن يجتهد، وعن ساعد الجد يشمر طالبا من الخير المزيد؛ وطامعا في الرقيّ إلى الدرجات العلا في جنات النعيم، في طموح إلى الفوز بالفردوس الأعلى ليكون إلى جوار رب العالمين:{ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥} [القمر: ٥٥].. متمنيا على الله ﷻ لي ولهم التوفيق والسؤدد، والهداية التي إليها نحفد على سويِّ الصراط، طالبين من الله ﷻ الإمداد والعون وصولاً إلى حُسْن المآل، اللهم آمين.

حسن عابد

* * *

المقدمة

أخي القارئ:

لعلك توافقني في أن القرآن العظيم المنزل من عند الله ﷻ على قلب نبينا الأمين محمد ﷺ يحوي بين دفتيه سورات عظيمات، كل منها على خطر عظيم؛ إذ إن لكل منها مَغْزىً ومجالاً تخصصت فيه أهدافها عرضا ومعالجة بكل دقة وتمحيص، وغلبت على مداره مسارات آياتها، وسَبَحَتْ في فَلَكِهِ معاني وحقائق أنوارها وبركاتها، وحَظيت بإعجاز وظيفي ميَّزها عن غيرها من السورات.. وتفرَّدت به شهرة وإيثارًا؛ وأرْخت على ربوع دعْواها، وجوانب محتواها أطرافَ سُدُولِها مَحَجَّة وإحتواءً!..

ومن رحمة الله ﷻ بنا أن أقامنا الآن معًا خاشعين بين يديّ آياتٍ عظيماتِ الشأن، جامعاتٍ لخيري الدنيا والآخرة معانٍ وأهدافًا.. فالدنيا بما فيها من آياتٍ ناطقات بالإعجاز والإجلال؛ تدعونا إلى توحيد الله رب العالمين؛ لننال خير ما أ عِدَّ في الآخرة من نُزُل ومصير.. فالآخرة فيها من النزل ما يتناسب مع سعي الساعين فيما كانت عليه كل نفس من النفوس في الحياة الدنيا؛ تلك النفوس التي لا تخرج في تصنيفاتها عن فئات ثلاث " ألا وهى النفس المطمئنة، والنفس اللوامة، والنفس الخبيثة "؛ والعياذ بالله من هذه الأخيرة وممن رُكِّبت في نواسيت شخوصهم ")..

وهذه الآيات التي هدانا الله ﷻ إليها فضلاً منه ومنة.. تأخذ بلب كل من يتدبر أمرها ويستحضر سرها؛ فترقق قلوب المؤمنين من عباد الله، وتجعلهم - باستدرار معانيها واستجلاب مراميها - خاشعين لله ﷻ خشوع العارفين؛ معترفين بتقصيرهم في مناهج وسبل

عباداتهم مهما كانوا لـه ﷻ من العاملين المجتهدين.. فيرجون عفوه ورحمته؛ متمنين في وُدٍّ وطموح أن يمد لهم يد العون قربًا وهداية..

نقف الآن سويًّا أمام آياتٍ عظيمات تُجَلّي لنا حقائق الخلق والإيجاد، توضح لنا كيف بدأ خلقنا، وكيف كان الإيجاد.. وما هي الأطوار التي تقلبنا فيها، والمراحل التي تنقلنا بينها؛ متلقَّفون بمشيئة القدرة الإلهية بين أياديها؛ حتى أ خرْجْنا إلى الحياة الدنيا في أحسن وأتم صورة وأجملها؟!!.. وقد وفقنا الله ﷻ إلى ما يدعم كل ذلك مما أذن الله ﷻ به من كشوفات علمية توصل إليها المتخصصون في شتى فروع هذا الشأن ومجالاته، وفيما يتعلق منها بهذه الأسرار!!..

سوف ترى معي وتشاهد - في هذه الرحلة الممتعة حقًّا - أن كلاً منا يمثل عَالَمًا متفردًا بذاته دون باق المخلوقات؛ حتى الذين هم من بني جنسه.. كل منا يتعامل ويتفاعل مع من يعايشونه وما يحيط به من مخلوقات شتى - ذاتيًّا - دون تدخل يُذكر من غيره.. فكل منا يرى ويسمع، يعي ويعقل، يفكر ويدبر ويقرر، ينطق ويتكلم، يتحرك ويعمل ما يرى فيه مصلحته، ويختار ما يظنه ذا فائدة له دون غيره، وينأى عما يعتقد فيه ضرره، تقله ساقان مثبتتان على قدمين حيث يشاء.. تقوم على خدمته في جميع شأنه يدان تتحركان كيف يشاء.. يتناول بهما طعامه وشرابه، ويبطش بهما بأعدائه، ويساعد بهما أحبابه، ويذب بهما الأذى عن نفسه؟!!.. وسبحان الله ﷻ الذي قدر فهدى.. وتبارك الله ﷻ أحسن الخالقين.. من يتدبر هذه الآيات ويعيها يصبح شفيف الروح.. رفيف النَّفس.. رهيف الإحساس.. رقيق الشعور؛ لِما يشاهد من خلال ما فيها من أسرار وإعجاز، ومن عجيب الخلق والإبداع.. يعاين من بين نظم وترتيب أحرف هذه الآيات وكلماتها من دقيق وعظيم المشاهد والرؤى!!.. إذ تأخذنا من

حطام الدنيا الزائل لنحيا حياة الخلود والبقاء في مصير مُعَدٍّ ومُقام يلقاه الجميع في يوم الدين المعلوم؛ فيرضى كلٌّ منا من دنياه بما يُعينه على ذكر الله ﷻ وشكره وحسن عبادته، ويتلذذ بما يجد من موالاة الله ﷻ له؛ فيُقدِّم لأخراه مما جعله الله مستخلَفًا فيه من النعم وأسباب النعيم؛ فيبذلها طواعية استرضاءً لله ﷻ حتى يجدها عنده يوم يلقاه..

من يتدبر هذه الآيات الجليلة يجد نفسه في صحوة عقلية قربًا من الحقيقة التي لا مهرب منها ولا مناص.. ألا وهي: أن هذه الحياة الدنيا التي نحياها مطمئنين إليها ما هي إلاَّ مرحلة من المراحل، وطور من أطوار الخلق والتكوين، انتقلنا إليها من مراحل سابقة عليها، وأننا لا شك تاركوها انتقالاً إلى ما يتلوها من مراحل لاحقة عليها{وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾} [الانشقاق: ١٨ - ١٩]، وأننا بني الإنسان - نمر بها عابرين إياها - غير ماكثين ولا مستقرين - إلى طور آخر حُدِّدت بدايته بنهاية طور هذه الحياة الذي يُختتم بما يسمى الموت؛ حيث يبدأ الطور الآخر الذي يليه في عالم البرزخ انتظارًا ليوم الحساب.. ذلك اليوم المشهود الذي تُعرَّى فيه خفايا الخلق جميعًا، وتُبَدَّى فيه بجلاء البواطن من الأمور، وتتكشف فيه الأسرار وما هو أخفى من الأسرار على رؤوس الحضور والأشهاد - وما أكثرهم وأحصاهم يومئذ؛ إذ هم الخلق أجمعون من لدن آدم عليه السلام إلى يوم البعث والنشور - إذ الجميع يومئذ مجموعون، وبأرض العرض للحساب محشورون؛ لا تخفى منهم أدنى خافية إلاَّ من رحم ربي ﷻ ممن سبقت لهم من الله ﷻ الحسنى؛ الذين يكنفهم الله ﷻ - رحمة منه وفضلاً - في كنفه بعيدا عن أعين أهل الموقف جميعًا فيُشهدهم على ما كان منهم في الحياة الدنيا، فيُقرُّون بها وهم

منها خجلون، ومن عذاب ربهم مشفقون؛ فإذا به ﷻ يُثلج صدورهم بقوله لهم: " لقد سترتها عليكم في الدنيا، واليوم أغفرها لكم " ويدخلهم في رحمته، ويسكنهم جنته من غير نشر للحساب، ولا سابقة عتاب، ولا إذاعةٍ لما كان منهم من خطايا وسيئات وسائر المعاصي من الذنوب والمحقرات؛ يغفرها لهم بنعمة الإيمان، والتسليم لأمره والإذعان.. و{ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ} [الحديد: ٢١]!!..

هذه الآيات العظيمة؛ المحدودة العدد تمثل ملخصًا وافيا، وموجزًا واعيًا في غير إسهابٍ ولا إخلال لما احتوت عليه ما انتسبت إليه من السور التي آتينا بها منها بتوفيق من الله ﷻ وفضله.. إذ تشهدنا وتعرض علينا تفصيلاً أصل إيجادنا حيث النشأة الأولى من خلق وإيجاد، وإنشاء وميلاد.. وتلفتنا التفات الشخوص القائمة لمشاهدة المرائي الحقة لما جعله الله رب العالمين من أسبابٍ لبقائنا إلى تمام ما قدر الله ﷻ لنا من آجال في هذه الحياة الدنيا.. تعرض لنا عرضًا وافيًا غير منقوص - تذكيرًا وإقرارًا - ما بسطه اللهُ ﷻ علينا من النعم السابغات، في إشارة جلية واضحة ومفحمة لفضل المولى وقدرته ﷻ، وطلاقة إعجازه في إظهار وإعمال يد القدرة في آيات خلقه؛ في تحدٍّ مُحفِّز للعقول، وزاجر لأولي النهى؛ داعيا لإعمال ملكة الإدراك والتفكير فيما نحن فيه من عظيم الآلاء.. وحيث الجميع في نعمه وخيراته يرتعون ويمرحون، وبما أسبغ عليهم من ظاهر النعم وباطنها يتنعمون ويتلذذون!!..

تدعونا هذه الآيات للتوقف أمام آلاء عظام للتفكر في شأنها العظيم، وأمرها الواضح وضوح النهار، الجليّ جلاء الشمس في كبد السماء دون غيم أو سحاب.. هذه الآلاء العظيمة - وما أكثرها

وأخطر شأنها - التي لم يكلف الكثير من بني البشر نفسه للتوقف أمامها تدبرًا في أمرها وبحثًا عن سر إيجادها بسبب تعودهم عليها؛ إذ إنهم منذ يوم ولدتهم أمهاتهم وجدوها سابقة على وجودهم فألفوها وتعودوا عليها، وهم منذ طفولتهم إلى بلوغ كهولتهم عبْر مراحل صباهم وشبابهم قد تعوَّدوا على رؤاها وتألفوا تكرارها، واطمأنوا إلى رتابة حدوثها؛ فأصبحوا عن دواعي التفكر في آياتها لاهين ومستغنين، وعن التوقف عند معجزات وخوارق آياتها معرضين؛ فلم يتكلفوا أمر وعناء الانشغال بأمرها، أو محاولة فهم كنهها.. ولعل الناس لو اهتدوا لذلك لكانوا إلى الإيمان بربهم سابقون.. وبقدرة القادر وقيوميته وبسط سلطانه على أركان الوجود يوقنون.. وعلى سويِّ الصراط يستقيمون؛ حتى إذا كان اليوم الآخر يكونون من بطشه آمنون، وبرضاه عنهم يفوزون.. وإلى دارِ رحمته في جنة الخلد يُزَفُّون وبها يسكنون، وبما فيها من النعيم يهنأون ويرتعون..

هذه الآيات بعد أن تنطلق بنا انطلاقة عجيبة محيرة ومذهلة لكل ذي لب في عرضها لمعجزات الخلق والإنشاء لذواتنا، كما لمتطلبات استمرارية حياتنا الدنيا حتي يبلغ كل منا أجله المقدر، إذ بها تتوقف بنا عند نقطة الوصل الحرجة التي تربط وتصل بين البداية والنهاية في هذه المرحلة من مراحل وأطوار بني الإنسان.. ألا وهي انتهاء مرحلة الحياة الدنيا ختمًا وتوديعًا بما هو معروفٌ لدينا بحالة الموت، هذه الحالة التي تمثل لنا تحقيقًا - بغير شك ولا جدال - باب الولوج وقنطرة العبور بنا من هذه الحياة الدنيا إلى حيث طريق الآخرة؛ كاشفة لنا من أسرار الموت ما منه بُد؛ من معالجة النفس إيذانا بالاحتضار للموت، حتى تمام إزهاقها إعلانًا لتمام الموت.. تعرض لنا هذا المقام بما يعتريه ويلازمه من أحوال صعبة على النفوس في

تفصيل مثير صادق التأثير.. وفي إيجاز واقتضاب يتناسب مع صعوبة الحال وشدة المصاب وقوة وقعه في غير إهمال لجانب من جوانبه.. وغير مخل بما يدور في هذا المشهد المحير من أمور عظام!!.. مبينة ما فيه من جواحظ الإعجاز وفرائد القدرة.. وما يرافق ذلك من تحدٍّ مُتيقَّن في سفور عنيد لهذا المحتضر للموت؛ المتشبث بالحياة، ولهؤلاء الذين حضروه من ذوي القربى والرفقة والصحاب؛ إذ الجميع حوله قاعدون، ومن حالة نزعه ونزاعه على أنفسهم وعليه يتحسرون، وللظاهر من أمره يشاهدون متأملين ويتألمون!!.. إنهم يرَوْن فيه الموت ولا يلامسوه!!.. يستشعرون ما يعانيه من أهوال السكرات وغمار الشدائد؛ وهم عن فعل أي شيء حيال ما يعايشونه من صعوبة الحال وشدة الموقف عاجزون!!.. فلعلهم بعرض هذه المشاهد والأحوال عليهم وبمعاينتهم إياها؛ ولبادي عجزهم ساعتئذ إلى ربهم يثوبون.. وعن طريق الغي واللهو والضلال يرتدعون تائبين؛ من قبل أن يحين وقت الوداع لكل منهم بالموت الذي يشاهدون ظاهر صورته دون غامض وخافي حقيقته، ويعاني كل منهم ما يعاني صاحبهم المسجى أمامهم وهم إليه في كامل عجزهم ينظرون.. متسربلون في خوفهم من هول ما يشاهدون!!.. والجميع عن إنقاذه بمجموع قدراتهم عاجزون..

والأمر على أشده إذ بالآيات تكشف لنا عن بعض ما يعاينه ويشاهده المحتضر نفسه مما قد خفي عن الجمع الحضور - مما لا يمكن لهم رؤيته من أمر المحتضر، وقد غاب عنهم - إذ وهو يغامر سكرات الموت؛ يرى ما يراه مع عجزه عن النطق والإفصاح عما يسمع ويرى من رسل الله الذين يعالجون نفسه وعمَّا يلقاه!!.. فكلٌّ حسب ما كان عليه ديدنه انتماءً واعتقادًا في دنياه يرى من أنواع

التبشير أو التحقير ما يرى؛ وهو في طريقه راحلاً إلى عالم البرزخ بلا رجعة ولا عودة إلى يوم الدين!!..

تعرض لنا الآيات في جلال وإجلال.. ما يبشِّرُ به ملائكة الموت - قابضو الأنفس - المُحتضرَ بما يناسب ما كان عليه من حال وانتماء.. إذ كل فريق يرى ويُخبَرُ بما أعِدَّ له وينتظره من النُّزُل حسب ما كان عليه كل منهم من الحال والعمل في دنياه.. إذ إن منازل الناس كما ألقابهم ورتبهم ساعتئذٍ لا تخرج عن منزلة من ثلاث منازل لا رابع لها.. فإما أن يكون المحتضر من أهل السبق إلى الصالح من الأعمال فيكون من أصحاب منزلة السابقين(أصحاب النفوس المطمئنة).. وإما أن يكون من القائمين على الفرائض الموفين حدودها من غير إكثار من النوافل، الذين هم لأنفسهم دائما يحاسبون ومعها يتلاومون فيكون من أصحاب منزلة اليمين(أصحاب النفوس اللوامة).. وإما أن يكون من أهل الكفر والشرك والفسوق والنفاق ونعوذ بالله ﷻ منهم ومن مصيرهم وشر ما يبشرون به فيكون من أصحاب منزلة الشمال (أصحاب النفوس الخبيثة)..

أسأل الله باسمه العظيم الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، وبرحمته التي وسع بها كل شيء من خلقه أن يتغمدني وإيَّاك برحمته ويجعلنا سويًّا في أهل طاعته ومحبته هداية منه مقرونة بعون منه وإمدادًا إلى التوبة النصوح التي لا نضل بعدها أبدًا ولا نعصاه.. ويجود علينا بصحبة ورفقة أصحاب اليمين ويحشرنا معهم يوم الدين إن لم نكن مع الفائزين بمنزلة عباده المقربين الذين هم في مضمار السبق مع السابقين.. اللهم آمين..

حسن عابد

* * *

حكايتــي مع هذه الآيات

أخي القارئ:

لقد وجدتني شارد الفكر عن نفسي وعما يدور حولي أمام سياج كل آية من هذه الآيات المتناهية الخطر في خصائصها، العالية القدر في عظمتها، والبالغ في الأهمية مداها، والطاعنة في عالم الأسرار إعجازًا.. وجدتني فجأة في سكرتي وشرودي - وفي مباغتة من أمري وذهولي - أقف مُطأطِئًا هامتي في خضوع وخشوع، أعايش دوامة من التفكر والتأمل العميق، متمعِّنـًا فيما تبدَّى لي منها من صرخات مدوية تلطم نهاي بعجائب الأسرار وغرائب الأمور في ضجيج غير مسبوق - لا يعايش وقعه سواي - مستدعيةً كافة مداركي وحواسي في تَجَيُّش ذي عزم وإصرار للبحث والتدبر فيما هو كامن في داخلها من خفايا الإعجاز الذي تُلَوِّحُ لي بها من خلال كلماتها الموجزة التي تحوي بين بسيط مكوناتها - من حروف معدودة - إعجازًا لا يُحد، حاثَّة إياي لثبر أغوار بواطنها المتناسقة بإتقان عجيب يتناسب مع ظواهر آياتها الرتيبة، وترابطها الواضح الدقيق المتجانس في تلازم وتتابع باهر ومثير متوالٍ في نفس اللحظة وذات الآنيّة.. ودثَّرتني رهبة المفاجأة العابرة برغبة في سكون مُتفرِّس فريدٍ بين فواصل تلك الآيات، فتوقفت متحفِّزًا عند كلِّ مَوقفٍ؛ حاضرَ العقل، مقشعر الناسوت، وجِل الفؤاد؛ مما تَبَدَّى لعين قلبي عبْر كلمات كل آية من مشاهد صارخة ورؤى زاجرة تشيب لها اللِّحى قبل الرؤوس، وترتعد لهولِها - هلعًا وتهالكًا -

مباني الأبدان، وترتجف من نظم وترتيب أحرفها - تفطرًا وخشوعًا - معاني وأسرار الوجدان، وتسمو مشرئبة من روعتها الأرواح، ويرتعب متشوفًا - لاستطلاع الخافيات من دقيق معانيها - الباطن قبل الظاهر من مكونات بني الإنسان!!..

وعهدت نفسي في خضم هذا الحال متنقلاً بناظري بين تلك الآيات متعايشًا مع نداءاتها الصارخة، ومتفاعلاً مع ما تدعوني إليه من التشجع جريًا وراء كل خافٍ مستتر؛ وقد أحدقَت عيون عقلي فيما تستحضر من مشاهد الخير والنعيم؛ مستدعية ما تطمح إليه الأرواح، وتشرئب إليه الأنفس، وتتوق إليه الأبدان، وتترنم به زهوًا في صفاء تخيلاتها - وسمو أمنياتها - مهجة وسويداء كل قلب بصير!!..

لقد اقتحمت تلك الآيات العظام ظلام الغفلة في عمق تفكيري بنبراس تلو الآخر من نور اليقظة والصحوة فأثرته تعمقًا في الفكر، وصفاءً في الرؤى، وحيوية في التدبر، وتطهيرًا للعقل من الخمول، وسموًّا في النهى عن الدنايا طلبًا للرقي إلى المعالي؛ تقربًا إلى الله ﷻ عبر دعواتها المتتالية لثبر أغوارها في محاولات متتابعة، عميقة التركيز للوصول إلى ما تحويه من فيوضات الأنوار وأسرارها!!..

في تطبيق هذا المنهج الذي زجَّتني إليه هذه الآيات في عظمتها وشموخها أبصرت نفسي مبهوتًا أمام ما تناهى إليه أهل هذه الدنيا التي أنا واحدٌ من أهلها من تصنيف؛ ليس في عالمنا هذا؛ ولكن بدءًا بنهاية الخاتمة الدنيوية لرحلة بني الإنسان؛ حيث دارُ الخلود والقرار.. إمَّا الجنة وإمَّا النار.. رأيت في تبصر وكامل يقين ما أعِدَّ هناك من منازل ذات ألقاب، ورُتب درجات لأهل الدرجات،

ودركات لأهل الدركات ما أثار في نفسي العجب والذهول، والخوف والترقب لما نحن عليه قادمون وما هو إلينا ساع ولا بد أنه آت!!..

لعلك يصيبك ما قد أصابني من الخوف والترقب إذا علمتَ أننا بعد ولوج بوابة الآخرة بحلول حالة الموت - ببلوغ قمة الانفعال بين النفس والجسد - لن نجد هناك مِنَ الرتب والألقاب ما تعودنا عليه في دنيانا هذه من صِيَغ: جلالة الملك، وفخامة الرئيس، وسمو الأمير، ومعالي الوزير، وسعادة الوكيل، وسيادة المدير، والباشا والمشير.. ولا حتى رتبة الخفير!!.. وإنما سنجد كل هذه الألقاب والرتب والدرجات - وما يكون بينها من نداءات وتوصيف أكون قد اعتراني في ذكرها النسيان - قد أدْمِجَت وصُهِرَت حصرًا في فئات ثلاث؛ لا رابع لها.. ألا وهى فئات السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال..

ومن العجب أن يُشاهِدُ أصحابُ كُلٍّ من هذه الفئات الثلاثة، والمنتمون إلى أهلها، المندرجون تحت مسماها عبر سياج الآيات الخاصة بها مشاهد الحقيقة الصارخة بجليِّ الرؤى، في مشاهد متوقفة حصرًا على أهل كل منها بالتحديد!!.. وهذا ما حداني إلى تفحص تلك المرائي بنظراتٍ ثاقبة متفرسة، منطلقات من بؤبؤيْن جائليْن يتحكم فيهما الخوف والرجاء؛ (الخوف من العذاب والعقاب، والرجاء في الرحمة والنجاة)، ومن حدقتين مُتفطِّرَتَيْن ومشفقتين؛ جزعتين من هول ما أبْصَرَتْ وأدركت كلتاهما من حقيقة الأمر، إذ وعت عن حقيقة دامغة، ويقين خارج عن دائرة الريبة والشك أنه ليس هناك مجالٌ يذكر لنقاش، ولا أملٌ يرجى في جدال!!..

عندئذ خشعتا خشوعًا صادقًا، وتقطرت من مآقيها قطرات

ساخنة سالت على خدين سبق أن هربت الدماء من شرايينهما خوفًا وفزعًا؛ فأصيبا بخشونة الجفاف وصُفرة الذهول مما أدى بهما إلى ترهل السقوط والاضمحلال؛ جرَّاء هذا الاستعراض المذهل والمثير، وتلك المعايشة القاسية التي تفتحت على إثْرها عيون قلبي ومسامعه في يقظةٍ فريدة.. إذ هبَّت - في نشاط الصحوة - من غفوتها، وتنبهت مذعورة - لخطورة ما عاينت من أمر - من غفلتها!!.. وها هي ذي في كامل قواها وخالص مُدركاتها ترى وتسمع بعين الحق وأذنِه ما سوف يكون عليه حالها يوم القيامة!!.. وحارت جوارحي - جميعًا - من أطرافها إلى أصولها، وخارت عامة حواسي - بواطنها وظواهرها - وهي التي شاء الله‎ﷻ لها أن تكون أدوات العمل والسعي فيما يمليه عليها القلب والفؤاد.. وهي في الوقت ذاته تُمَثِّلُ جنود العقل المنوط بها تنفيذ ما يأمرها به من سعي وعمل بما يعن له من تدبير وأفكار!!..

ونحن على هذا الحال من الحيرة المُتَلَفِّعَة بالخوف والمتشربة بالذعر لهول ما عايناه وشاهدناه عبر هذه الآيات التي تنطق جلالاً وكبرياءً.. إذ بنا وقد آثرنا في مجموعنا التريث بالكلية.. ظاهرًا وباطِنًا، قلبًا وقالَبًا، عقْلاً وخيالاً، جوارحَ وحواسًّا.. تريَّث جميعنا هُنَيْهة في خضم الحيرة والذهول، بلسان حال ينطق بما يماثل حال من سقط فجأة في وهده فاجئه؛ واستغرقنا الفكرُ واحتوانا بحثًا عن مخرج آمن، وسبيل للنجاة.. وتوصلنا في نهاية الأمر إلى الضرورة العاقلة والمؤكدة التي تفرض علينا أن نختار اليوم قبل ألاَّ يكون هناك من خيار.. وكفانا ما مرَّ من العمر وفات، وما سبق أن وقع منا فيما مضى من الأجل من هَنَّات وزلاَّت، وارتكاب للمخالفات، والتجرؤ تجاسرًا على التجاوزات!!.. إذ لم يعد لنا في هذه الحياة الدنيا من

العمر إلاَّ القليل.. ولم يبق لنا من زمنها إلاَّ ما يُشبه الذرَّ المنثور.. وما نظن المُدَّخرَ من أعمارنا فيها سوى الفتات (هذا إن كان هناك باق سوى ما نُعالَجُ به من أنفاس في آن تلك اللحظات)!!.. واكتشفنا في وقفتنا هذه أن ما قد قدَّمنا لأخرانا ما هو إلاَّ القليل.. فانتصحنا بالبذل والاجتهاد تحسبًا ليوم المعاد.. والعرض على رب العباد ﷻ في موقف حاشر على رؤوس الأشهاد.. يوم تُفتَضَحُ الأسرار للحساب، وتُتَكشَّفُ الخفايا والأستار، وتعرَّى بواطن النفوس والأجساد..

وإليك أقدم هذه المشاهد، وتلك المواقف؛ التي توصلتُ إليها في هذا البحث الذي يحوي الكثير من عجائب الأسرار، وعظائم الأمور، وعجائب الأقدار؛ لعلك تحذو حذوي.. وتسلك مسلكي الذي هداني الله ﷻ إليه تفضلا منه ورحمة؛ فتتدارك من أمرك اليوم - وأنت في سَعَة - قبل فوات الأوان، ونفاد الأنفاس، وضياع الآجال والأعمار.. راجيا من الله مولانا أن يوفقك إلى الخير؛ فتحسن الاختيار..

حسن عابد

* * *

آيات البحث الثمين
المكتظ بعجائب الأحداث وخوارق الأمور

أخي القارئ:

نحن في رحاب هذه الآيات العظيمة الشأن، العالية القدر، المتجلية بإعجازاتها وخوارق عجائبها، المدوية بنداءاتها، والزاجرة بصراخها؛ منبهة للأنظار والعقول إلى ما حولنا من عظيم الآلاء التي يغفل عن إدراك أسرارها الكثيرون ممن هم فيما اشتهته أنفسهم مما أودعه الله ﷻ فيها من خيرات يتنعمون ويتفكهون وفي ظلالها ونسائمها يتفيَّؤون.. وهم في ذات الحال عن مكنون الغاية من خلقها وتعلق ذلك بأصل نشأتنا لاهون.. إذ قدَّر المولى ﷻ أن يجعلها لنا مسخرة، وجعلنا لاستمرار وجودنا بها مرتبطين..

ولقد كان لي مع هذه الآيات مطلبٌ ومسعى.. وكان لها مِنِّي اختيارٌ وانتقاءٌ.. ولقد أسبغ الله ﷻ عليَّ في طريق البحث عنها ودراستها مغنمًا؛ حالاً وعلما؛ أرجو الله ﷻ أن يسبغ عليك ما أسبغه عليَّ فضلاً منه ومنًّا؛ كرمًا وعطاءً..

لقد كان التوفيق من الله ﷻ سابقا لي في بدء المسار وأصله.. وتحديد الهدف منه والغاية.. ولذا فإني لأجزم أن هدايته ﷻ في هذا المضمار كانت لي سابقة.. إذ كانت هي عين دليلي في اختيار الموضوع وعرضه.. وكان توفيقه إيَّاي أساس العمل وغايته.. وكانت معاضدته إيَّاي هي نبراس هدايته ﷻ للوصول إلى المقصود والغاية، وبتوفيقه كان إتمام العمل.. فله سبحانه وحده الحمد كله والشكر كله على الإطلاق كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه..

هذه الآيات عنيت وتخصصت بسر خلق الإنسان وأسرار خلق ما سُخِّر له من كائنات ارتبطت بها حياته، موضحة عجيب الآيات في عناصر الخلق والإيجاد التي تمثل القاسم المشترك في خلق الجميع إنسًا كان أوحيوانًا أو من زرع وإنبات.. وما حوى الجميع أيضًا من تطابق أطوار ومراحل الخلق دون حيدة أوانحراف عن المسار؛ تتابعًا في التنامي والنضوج والموت ثم البعث من بعد ممات!!..

وهذه الآيات إذ تغشينا بالخشوع سجودًا للخالقﷻوإجلالاً؛ في وضوح بيان وَحْدَةِ إعجاز الخلق في الإنسان وكل الكائنات، وما فيها من تجانس الأسرار والمعجزات!!.. نوردها بداية في ترتيبٍ مِنَ المقصود والغاية الأعلى في الخلق بدءًا من الإنسان ومرورًا بما سُخِّر له من كائنات يعيش عليها ويقتات وختمًا بأسرار وإعجاز الرحيل من هذه الدنيا - انتظارًا ليوم البعث والنشور - بحلول ساعة الرحيل بالممات!!..

ونبدأ بآيات خلق الإنسان ومراحله، وعلاقة ذلك الوطيدة بخلق وإنبات النباتات، وارتباط كليهما بالآخر، والعلاقة المشتركة التي تربطهما بالأرض تكوينًا وخلقًا وإيجادًا، وتجانسًا وتمازجًا نشأة وأسبابًا:

أولاً: آياتٌ جامعة تعرض المقارنة جليَّة بين خلق الإنسان وخلق النبات، وعلاقة ذلك بالأرض:

-{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ

بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾} [الحج: ٥ - ٧].

-{ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾} [المؤمنون: ١٢ - ١٣].

توضح لنا الآيات أن الإنسان خُلِق من تراب الأرض (الذي هو العنصر الثاني للطين الذي خُلق منه الإنسان الأول " آدم عليه السلام "؛ والذي توضحه الآية التالية بإذن الله.. ثم جعل نسله من الماء المهين (النطفة) كما سنوضحه في موضع آخر بإذن الله بالتفصيل.. كما توضح أن النبت (أيًّا كان زرعًا أو شجرًا) هو من أصل تراب الأرض؛ بعد نزول الماء عليها (فالأرض هي العنصر الأساسي المشترك لخلق كل من الزرع والإنسان على اليقين)..

ثانيًا: آياتٌ توضح علاقة خلق سائر الكائنات (ومنها الإنسان والنبات) بالماء:

-{وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ } [النور: ٤٥].

وفي الإنسان على وجه التحديد:

-{ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ (أليس الطين مكون من تراب وماء؟!!) ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ } [السجدة: ٨].

-{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾} [المرسلات: ٢٠].

ثالثًا: آياتٌ توضح علاقة ألوان سائر الكائنات (من إنسان ونبات ودواب) وتجانسها مع ألوان الأرض:

-{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾} [فاطر: ٢٧ - ٢٨]..{ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾} [الروم: ٢٢].

رابعًا: آياتٌ توضح العلاقة بين خلق كل من الإنسان والنبات من زوجين (الذكر والأنثى):

فكما خلق الله ﷻ الناس من زوجين " الذكر والأنثى " من مادة الماء ممزوجة بتراب الأرض " الطين " بدءًا، ثم تناسلاً من ماء مهين.. فكذلك من الماء الذي ينزله على تراب الأرض يخلق كل شيء من زوجين مثلاً بمثل:

-{ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ " وهي العامل المشترك الأول مع الماء في الخلق " مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً " العنصر الثاني مع عنصر الأرض في الخلق إنسًا كان أو حيوانًا أو نباتًا " فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ } [طه: ٥٣]..

-{ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا " بالماء "وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾} [يس: ٣٣ - ٣٦]. وهي سورة قال عنها رسول الله ﷺ أنها قلب القرآن... وإني لأدعوك إلى التأمل فيما بين القوسين وتلحظ أن كل نبات الأرض أزواجًا.. ويجب التنبيه إلى أن لفظ (ومن أنفسهم) هنا (والتي تعني الإنسان) لم يَرد رفاهة أو من فراغ؛ وإنما ورد مرادفًا للأزواج التي هي من نبت الأرض.. ويؤكد ذلك عندي ما جاءت به الآية رقم ١٧ من سورة نوح التي تخاطب الإنسان بقولها{وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾} [نوح: ١٧ - ١٨] وهذا تأكيد على أن الإنسان كما النبات (من زرع أو شجر) هو من نبت الأرض.. وسيأتي شرح ذلك بيانا وتوضيحًا بالتفصيل.. إن شاء الله ﷻ.

ونختتم سرد آيات هذا البحث العظيم بما أخبرتنا به آياتٌ (هي من جوامع الآيات في هذا المجال) وردت في سورة عظيمة عدَّها سيد الخلق ﷺ من مشيبات لحيته الشريفة؛ لما ورد فيها من التنبيه الخطير على عظائم الأمور.. ألا وهي سورة الواقعة.. إذ تقودنا إلى مشهد متعدد الصور والزوايا تنبيهًا إلى آيات خلق وإيجاد الإنسان، ومراحل تنقلاته في الأطوار.. وكذلك الآيات المنظورة التي تحيط بالناس وهم عنها غافلون، وعن الانتباه لجلال أمرها ساهون!!.. إذ إنها تقرع فينا النهى والإدراك بأساسيات خلقنا تناسلاً نحن بني الإنسان؛ من بعد خلق الإنسان الأول (أبينا آدمعليه السلام).. تلك الأساسيات التي تتجانس وتلتقي مع أساسيات عناصر بقائنا وتخالفنا في هذه الأرض إلى ما كتب اللهﷻ لنا عليها من آجال.. راحلين عنها إلى يوم البعث المعلوم؛ فتقول:

-{نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ

نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ **أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ** ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ **أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ** ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ **أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ** ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ **فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ** ﴿٧٤﴾} [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

وأرى قبل أن نبدأ في خوض غمار الكشف عن أسرار وعجائب هذه الآيات، وما بينها من تناسق معجز وتمازج عجيب.. أن نستفتح لذلك في غير إسهاب ولا إطناب؛ ولكن في إيجاز غير مقل ولا مخل بإيراد ما سبق أن ساقته الآيات المتقدمات في الترتيب سبقًا من صدر هذه السورة العظيمة لما معنا من آيات فنقول وبالله التوفيق:

لقد نقلت لنا آيات سورة الواقعة المشار إليها مشهد القيامة وَصَوَّرته تصويرًا دقيقًا مبينة ما ينتج عنه من تقسيم للناس دون باقي المخلوقات إلى ثلاث فرق لا رابع لها، كل فرقة منها مميزة ومُحَيَّزة عن الأخرى.. حسب تصنيفاتها المقدَّرة مِنْ قِبَل العليم الخبير ﷻ، وحسب ما سيكون عليه موقفهم الذي سيوقفونه يومئذ للعرض على رب الأرباب ﷻ وتعرُّضهم للحساب، وما ينتج عنه من مصير؛ إمَّا ثواب بسكنى درجات وغرفات الجنَّات، تجري من تحتهم الأنهار، يتمتعون بما فيها من النعيم الدائم المقيم!!، وإمَّا عقاب هُويٍّ؛ يهوي بهم في قعر النار وما فيها من دركات؛ يتعذبون بلهيبها، ويَستظلون بشعبها الثلاث فترميهم بشرر كالقصر، وتلفحُ وُجُوهَهَم بريحها السَّموم، ويُطعَمون فيها من الزقوم، ويشربون من

مائها المُهل نتاج الصديد المحمي بالحميم!!..

فهاهم السابقون الذين كانوا في دنياهم يسعون في جد وعزيمة لعمل الصالحات، في سباق مع أيام آجالهم التي علموا أنها معدودة الأنفاس، ومحدودة المدى.. فبذلوها في فعل الخيرات تقربًا إلى الله ﷻ.. هاهم يوم القيامة يحصدون نتاج اجتهادهم تنعمًا بالقرب من الله ﷻ في وُدٍّ وتحنان؛ جزاء ما كانوا فيه من طاعة؛ وما تفانوا فيه من خالص التوحيد والعبادة، وتشميرهم عن ساق الجد وساعده؛ إكثارًا من فعل الخيرات؛ واستزادة من النوافل والقربات بعد إتمام الأركان من صلاة وصيام وحج وذكر وصدقات؛ طامحين إلى مجاورة رب العالمين؛ طامعين{فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } [القمر: ٥٤ - ٥٥].. ها هم يتلقون بشرى الرضا والقرب من الرحمن.. فهنيئًا لهم بمسعاهم وهنيئًا لهم ما يبشرون!!..

* * *

الحب الأعظم

يا مَنْ خلقتَ الكوْنَ حُبــا دائمــا ::: إذ قدْ جعلت الحُبَّ نهجًــا لازمــا
بالحُبِّ أنتَ قد خلقتَ كلَّ شـــيْ ::: مُذ كُنتَ كنزًا خافيًا لا تعلمــا[1]
أحْبَبْتَ أنْ تُعرفَ فأبْدَعتَ الْوُجــو ::: دَ كَيْ تكونَ للوُجُــود مُعْلمــا[2]
منكَ القضاءُ: مَنْ أحَــبَّ الالتقــا ::: يوْمَ اللقاء.. بالحُبِّ كُنتَ المُنعمــا
أَوْدَعْتَ كلَّ الكائنـــات رحْمَــة ::: حتى تحانَ الخلــقُ حُبًّــا مُفعَمــا
حتى الظلومَ المُــشركَ قــدْ ألــهَ ::: نــدًّا لــكَ يُــسْديه حُبــا ظالمــا
أمَّا الــذينَ آمَنــوا.. في حُبــكَ ::: أَسْدُوا إليْكَ الحُبَّ فذَا مُحْكَمــا[3]
المُحْـــسنونَ المُتقـــونَ العَـــارفو ::: نَ قدْرَكَ.. بـــاتوا إليْـــكَ قوَّمــا
قدْ عَبَّدُوا أجْسامَهُمْ.. شادُوا الحَيا ::: ة جُهْدَهُمْ صَرْحًا إليْــكَ سُــلما
أرْواحُهُمْ دَوْمى الْعُرُوجَ في الخَفــا ::: صَوْبَ السَّما.. تَرْجُو قرْبًا.. حُوَّمَا
قدْ عَيَّنوا أطمـــاحَهُمْ مُسْتَــشْرِفو ::: نَ نحْوَكَ عنـــدَ العُــرُوج مَعْلمــا
إنَّ المُحبَّ يَخلو ليْلاً بــكَ إلهـــي ::: وَالأنـــاسُ في الفـــراش نوَّمـــا
يُحْي اللَيـــالي في هَـــواكَ عاشـــقا ::: لكَ ناصبًا.. يَرْجُو رضَاكَ مَغنَمــا
يَحْيا النعـــيمَ في الحَيـــاة الـــسَّارِيةْ ::: بالليْل ذكْرًا.. وَالنـــهَار صـــائما
في قرْبكَ ينـــسَى النعـــيمَ كُلـــهُ.. ::: كُلُّ النعَـــيم لا يُجَـــاري المُنعمَــا
بالحُبِّ باتَ الرُّوحُ صَـــبا مُغرَمـــا ::: في بَحْر حُبِّكَ يـــا إلهـــي هائمــا
في بَحْر قدْسٍ لكْ إلهـــي يَـــسْبَحُ ::: رُوحُ المُحبِّ إذ بـــكَ قـــدْ تيِّمــا

وهاهم أصحاب اليمين؛ أهل الإيمان والتوحيد الذين كانوا في دنياهم بطاعة الله منشغلين؛ رغبة فيما عنده من العطاء العظيم الذي إليه يتطلعون.. هؤلاء الذين صدقوا الإيمان بربهم رغم ما وقعوا فيه

(1، ٢) حديث قدسي " كنت كنزًا مخفياً.. أحببت أن أعرف.. فخلقت الخلق وبي عرفوني ".
(3) سورة البقرة: آية (١٦٥):{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ }.
- حديث شريف: لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

من بعض سيئات الأعمال واقتراف بعض الذنوب.. وكانوا مع وقوعهم في العصيان دائمي التوبة والاستغفار رجوعًا إلى الله رب العالمين.. هؤلاء هم أصحاب النفوس اللوَّامة.. الذين كانوا إذا وقعوا في الذنب لاموا أنفسهم وعادوا إلى اللهﷻ تائبين منيبين.. يحْدوهم الأملُ والرجاء في العفو منه والمغفرة بما بشرهم بهﷻ بإخبارهم بما هو أهله:{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ } [النساء: ٤٨]، [١١٦].. وبطمأنته سبحانه إياهم بقوله:{وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ } [الشورى: ٢٥].. وبما وعدهم به من الخير الكثير؛ ماداموا إليه عن المعاصي يتوبون{ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾} [الفرقان: ٧٠].. وأنه ﷻ كثير العطاء:{وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠]..

* * *

طلبُ الغفران

مَنْ إلاَّكَ يا رَبي يَمْـنحُ الغفـرانَ ::: إنَّ الإنسانَ منا قدْ هَالهُ ما كـانَ
طاحَ العَقلُ عنا في غَمْرَةِ النـسْيان ::: والقلبُ انبَرَى خَفقًا.. ليْتَهُ ما كانَ
والعَيْنُ اكْتَوَتْ نارًا منْ سهام طاشتْ ::: إبْليسُ اللعينُ.. أدْمَى بها الوجْـدانَ
والنَّفسُ قد انْساقتْ دُونَ تَفْكير.. جَرْ ::: يًا للزَّائل الدَّاني.. فارْتقَتْ خُسْرانا
أىْ ربيِّ رَجَوْنا العَفوَ الكَريمَ توبًـا ::: للتوَّابِ عُدْنا.. كَلتْ بنا شَـكْوانا

وها نحن نرى وصف الصورة لأصحاب الشمال تلك الفئة الضالة التي تم عزلها بمنأى عن أهل السبق الأتقياء وأهل الإيمان الموحدين؛ إذ عرضت لنا الآيات المنوه عنها في وضوح وجلاء ما سيكونون عليه من حال وما سيصيرون إليه من مآل.. هؤلاء الذين آثروا الضلال على الهدى، وهجروا التصديق إيمانا إلى التكذيب عنادًا؛ وصمُّوا آذانهم عن الحق استكبارًا، وأغمضوا أبصارهم عن واضح وجليِّ الآيات نكرانًا وإنكارًا.. تلك الآيات الصارخة النداء التي تدعو من أبصرها وتدبر أمرها إلى الإيمان بالله الرحيم الرحمن ﷻ؛ فتولوا عنها في إصرار منهم على رفض الإيمان أو التصديق بيوم الحساب.. في نفور من الإذعان والتسليم لما جاء من الحق على ألسنة رسل الله الواحد الديان ﷻ.. راكنين إلى طريق الغواية والفتن والكفران، مستعذبين الشرك عقيدة ومنهاجًا.. منغمسين غرورًا في قيعان وبؤر الفساد والعناد جورًا وطغيانًا؛ تحت وطأة الغواية المتوطنة في نفوسهم اللقسة المظلمة.. وقد أنهكتهم الفتن الزائلة، وإغراءاتها الفانية.. مصدقين لما أملته عليهم أنفسهم من الغي، متمادين في أكاذيبهم حتى صدقوها، مستأنسين بما ركنوا إليه من فتن مهلكة.. وما أصروا عليه من باطل اعتقاد بما يدعونه من استحالة البعث بعد الممات، وإنكارهم للحساب وتكذيبهم بيوم الدين!!.. فضلاً عن استبعادهم لوقوع ذلك اليوم ذي المشهد

العظيم!!..

وبعد أن بسطت لنا الآيات مقارنة وافية شافية واضحة بين الناجين والهالكين يوم الدين، مبينة مصير كل منهم في دقة بالغة وجلاء تام؛ وما ينتظر كل منهم مما أعِدَّ من نُزُل تكريم وبشارة لأهل الصلاح من عباد الله المؤمنين، ومن نُزُل تحقير وإذلال لأهل المهانة والوضاعة!!.. في احتواءٍ اكتنفت به - على انفراد - كل حال ومآل؛ متنائية (بالقطع) عن كل مقولة أو مظنة تقود أو توحي بأي توقع أو احتمال غير ما عرضته لنا من مشاهد وأحوال!!.. والآيات إذ بها وهي في خضم هذا السرد الموجز العجيب، ومن باب الأمل والرجاء في هداية أهل الضلال، وفي حرص عجيب للعمل على إنقاذهم مما هم خائضون فيه من العبث واللهو في غياهب الضباب ودامس الظلام، ومما هم قد تعودوه وركنوا إليه - في حياتهم الدنيا - من لعب وترف وسفه ومجون.. تدعوهم كما تدعوا الجميع - عظة واعتبارًا - في لفتة متبصرة إلى النظر في أمر بعض ما اعتادوا عليه وألفوه - ولم يقفوا عنده تبصرا وتدبرا واعتبارا - من عظيم الآلاء، وواضح الآيات، البارزة دلالة على يد القدرة المطلقة لله الكبير المتعال؛ لعل الضال يهتدي؛ وينجو من عذاب الآخرة، ولعلهم عما هم فيه من الكفر والتكذيب يرجعون، وعن طريق ومنهج الضلال إلى الصراط السَّويّ يثوبون، فتكتب لهم النجاة من العذاب يوم الدين.. وهم قد عادوا إليه ﷻ عود التائبين، المنيبين إنابة صدق وتسليم، صادرةٍعن صدق إيمان وتحقيق يقين؛ قبل حلول الأجل، ورؤيا المنازل - التي هم إليها لا محالة قادمون - رؤيا تعيين ويقين؛ وقت أن تبلغ النفس منهم الحلقوم!!.. فتبشرهم رسل الموت بالنجاة مع الناجين، فلا تلفحهم النار، ولا تمسهم الجحيم، ويحشرون

مع الفائزين بسكنى الدرجات في جنات النعيم!!..

* * *

التوب من قريب

يا مَنْ أنَبْتَ تائبا مِنْ ذَنْبه ::: قبْلَ الْمَمات.. صادقا في توْبه
بُشرَى لَكَ منْ خيْر رُسْل اللهَ في ::: قوْل كَريم.. منْ جَميل قوْله
من تاب توْبًا صادقا.. منْ قبْل موْ ::: ت.. نالَ عَفوًا آكدًا منْ رَبه
أبْشرْ بتوْب جاءَ فَضلاً منْ إل ::: ه.. جادَ عَفوًا.. فَاسْتفدْ منْ عَفْوه
إنَّ العُصاة إنْ تمادَوْا يَندَمُوا ::: إذ يُسْأَلُ مَنْ أذ نبَ عَنْ ذ نبه
لا تقبَلُ يوْمَ الحساب توْبة ::: أوْ حَتَّ عُذْرٌ يُرْتجَى عَنْ ذ نبه
الموْتُ آت.. لا يُماز ثوْبه ::: إنْ جاءَ – فاحْذرْ غَدْرَهُ في حينه[1]
إنَّ الأجَل عندَ الإله آتنا ::: لا ندْري أيْنَ.. أوْ مَتَى نسْتو فه؟!
فا حْذ رْ بجدٍّ بَغته إنْ جاءَ كَ ::: لا يُجْدي توْبٌ.. تُبْده.. في وقته
إنْ تلقَى رَبَّكَ تا ئبا مُسْتغفرا ::: تلقاهُ رَبًّا راحمًا في عَفوه
أوْ إنْ ظللتَ للمَعاصي مُؤْثرا ::: فالْعاصي يَلقَى النارَ.. مَثْوَى غَيه
الآنَ بادرْ بالرُّجُوع تا ئبا ::: فا لقبْرُ لا تدْري بما.. في جَوْفه

وهكذا نجد الآيات السابقة الذكر قليلة في كلماتها، معدودة في حروفها، مُحْصاة آياتها.. ومع ذلك فهي جامعة وحاشرة لآيات النشأة الأولى وأسرارها، مبينة لآلاء الحياة الدنيا وعناصر إيجادها، ومحتوية لآيات الآخرة بدءًا بما يدور من مشاهد وأمور يراها المحتضر معاينة عند بوابة الموت!!.. إنه القرآن..

وهل بعد القرآن من إعجاز؟!!..

تذكّر الآياتُ جميعَ الناس بما فيهم من عجيب الإعجاز{وَفِيٓ

(1) لا يماز ثوبة = لا تعلم في أى ثوب يأتيك الموت=[في غرفة - في طريق - في حادث - في مرض - فجأة].

أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾} [الذاريات: ٢١]، وتلفتهم إلى ما يحيط بهم من أسرارخلق وإيجاد لكل ما فيه ضرورة لاستمرارية حياتهم في الأرض حتى بلوغ ما قدر الله ﷻ لهم من آجال.. ثم تُذكّرهم بما هو آتٍ - بعد الحياة الدنيا - وما هم إليه ذاهبون.. إنه الموت الذي هم إليه قادمون؛ ومن أعمار حياتهم التي يستنفذونها يومًا بعد يوم هم إليه ساعون؛ حيث إيَّاه في نهاية مسعاهم في حياتهم الدنيا يلاقون!!.. وتذكرهم بهذه الآلاء العظام التي هي فيما حولهم وإيَّاها يعايشون، وفيما يساق إليهم عبر المزن من رزق في السماء من الماء العذب الذي هم به يتنعمون ويترفون؛ إذ هو العامل الرئيس في حياتهم وفيما يُرزقون.. به تُسْقى زروعهم التي هم منها يُطعَمون، وتسقى منه دوابهم، وهم منه يشربون ويهنأون{وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾} [الذاريات: ٢٢]؛ لعلهم إلى ما تلفتهم إليه الآيات من أسرار وإعجاز يفطنون وينتبهون؛ فيهبّوا إلى كل درب من دروب الصالحات عاملين بجدٍّ، وعن سواعدهم يشمرون، استعدادًا منهم لساعة الرحيل؛ مؤمنين بربهم ولأمرهﷻ مذعنين، قبل أن يأتيهم الموت بغتة؛ حيث يُختم لهم بحسن الختام إن ساروا على طريق الهدى حتى يأتيهم اليقين؛ وبرضا الرحمن يفوزون، ومن سخطه وغضبه يسلمون ويأمنون.. وعن النار وعذابها يُبعدون، ومنها ينجون ويَسْلَمون.. وإلى الجنات يُدْعَوْن إذ تُزلَف لهم وهم إلى مزالفها يرقون وفي روضاتها يسكنون، وإلى غرفاتها يدْعَوْن مُلبِّين، وفي كنفها يهنأون ويطمئنون.. وبما فيها من الخيرات يتنعمون.. إذ قد رحلوا ساعتئذ عن دنياهم وهم على صالح الحال والأعمال دائبون ومقبلون.. فسُرُّوا بلقاء ربهم ﷻ في رضًا وهم إليه راجعون في حفد وخفة من رحلة الحياة الدنيا؛ التي كانوا فيها من أجل التقرب إلى الله ﷻ يجتهدون؛ وفي طريق الخير؛ طلبًا لرضاه يسارعون.. ينطق عليهم الحال بقوله (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه).. وهم بذلك وله عاملون

ومستبشرون.. وفي ثوب التوب والإخلاص لربهم ﷻ يرفلون!!..

* * *

الإستعداد لساعة الرحيل

يا قلبُ رِقَّ.. والْفظِ الرَّانا ::: واستبْدل الْعصيان إيمانا
فالعُمْرُ بال ثوْبُه حتما ::: والموتُ آت يحْوي حُسْبانا
يا سامعي أنصتّْ لذا النُّصْحِ ::: يَقْظانٌ أنْت.. لَسْتَ سَكْرَانا
قرآنُ رَبِّي كَلُّه نورٌ.. ::: فاتَّبعْهُ.. تَحْظَ الْبَرَّ قرْبانا
يَرْضَ الإلهُ عنْكَ في توْب ::: بالنصْح فيه تلقَ عرْفانا
يا مَنْ ترى الدنيا بلا خُلدً ::: للأُخْرى فاعْملْ.. وَابْن بُنْيانا
يَوْمَ انبعاث الْخَلق للْحَشْرِ ::: الْوَزْنُ يُجْرى.. تغدُ كَسْبانا
دَعْ ما عليها للذي يهْوَى ::: زيْفَ الحياة.. يَبْغ خُسرانا
عند المَمات.. يَبْدُ مَخْبُولاً ::: يلقى مَصيرَ الْخزي عُرْيانا
وَالقبْرُ فيه.. منْ كُلِّ كَيْد ::: يلْقى منَ الإذ لال ألوانا
في الْقبرطامَّاتٌ طَغتَ غَيْظاً ::: يَرْجُو بها: لَوْ لَمْ يَكُن كانا
قَدْ خرَّبتْ أُخْراهُ باللّهو ::: منْ كُلِّ خَيْر.. طا لَ حرْمانا
وَالْوَحْشةَ - في القبرِ يَلقَاها - ::: مَمْزُوجةَ الْحَسَرات - حَيْرانا
قد يندَمُ المسكينُ ساعتها.. ::: وَهَلْ تنْفعُ الأكْفانُ نَدْمانا؟!

* * *

الفصل الأول

أسرار الإعجاز في خلـق الإنسـان

الفصل الأول
أسرار الإعجاز في خلق الإنسان

{أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾}

في هذا الفصل تبادرنا الآيات مرفوعة الهامة، مبسوطة الطَّويَّة؛ قارعة أذهاننا، في مباغتة فاجئة مذهلة، محفزة عقولنا للتفكر والتدبر وصولاً إلى الحقيقة الصارخة؛ مشيرة إلى معجزة خلقنا، في تأكيدٍ واجب لطلاقة القدرة الإلهية، وناطقة فينا بالقول الحق؛ في صرخة مدويَّة حاسمة، تدعونا إلى التفكر والتعقل في رويَّة وهدوء يقودنا إلى التسليم الواجب بتفرد الله ﷻ قدرة وعلمًا على الإبداع المعجز، وإعمال يد الإحاطة إعجازًا في الخلق والإيجاد للكائنات!!.. فها هي الآيات تخاطب الجميع على رؤوس الأشهاد في شموخ وعزة وجلال؛ زاجرة العصاة المكذبين، ومنبهة أولي النهى والفكر والتدقيق إلى أصل خلقهم ومصدر إيجادهم مُبلِّغة إيَّاهم قول الخالقﷻ وهوالقول الفصل الذي لا ينازعه منازع، ولا يعترض عليه معترض:{نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ } [الواقعة: ٥٧]؟!!.. ليُعْمِل السامعون فكرهم، ويختلي كل منهم هُنَيْهة بعقله، مفكرًا في أناةٍ، ومتدبرًا على مَهل في أمر خلقه وإيجاده.. مع التسليم بوضوح هذا الأمر وجلائه بما لا يحتاج معه الباحث عن الحقيقة إلى معاناة أو جدال!!.. لا فتة الجميع إلى السبب المباشر في خلقهم، القريب منهم، والملموس لديهم عن قرب ويقين{أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾} [الواقعة: ٥٨ - ٥٩]؟!!..

إن الآيات توقف الجميع - مَن صدَّق ومَن كذ ب..

من أقرَّ ومن أنكر.. من آمن ومن كفر - تُوقف الجميع من بني

آدم - أيًّا كانت عقيدته - بروعة الخطاب؛ لاطمة أذهاننا ونُهانا لتنبهنا مِن غفلتنا، وتصحو بنا من غفوتنا.. مُفْحِمة الجميع بقوة الحجة وجلِيِّ البرهان أمام مادة إنشائنا التي لا تتعدى أن تكون نوعًا من أنواع الإفرازات المائية المهينة العديدة التي تفرزها أجسامنا على مدار الأيام والساعات، وتزجرنا بما يترتب عليه وما يحويه من إعجازات شتى لا تُعدُّ ولا تحصى.. ألا وهو المنِيُّ المغمور بالماء الهيِّن المهين الذي يسمى في مجموعه (النطفة) والذي - في مظهره - لا يختلف عن أيَّة إفرازات مائية أخرى تخرج من أجسامنا عبر مسام جلودنا أومن مخارج حواسنا.. من مخاط، وبصاق، ولعاب، ودمع، وعَرق، وماء، ودماء، وتقيحات [وكلها جميعًا لو فحصت لعُوِيَنَ فيها وأ دْرِكَ الكثير من المخلوقات العجيبة من(ميكروبات) و(بكترياتات) و(جرثومات)، وسبحان القائل ﷻ:{وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ} [الأنبياء: ٣٠].. وهو القائل (سبحانه):{فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾} [الطارق: ٥ - ٦]، والقائل:{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾} [المرسلات: ٢٠].. وصدق سبحانه جل شأنه في قوله " وهو القول الحق، والصدق المطلق ":{وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا} [الفرقان: ٥٤]..

و أقولها لك بصدق!!.. إن بحثي في هذا المجال أكد لي أن ما خفي من أمر الخلق؛ مما لم يكشف عنه العلم ولم يصل إليه من أسرار حتى يومنا هذا هو الأخطر والأعظم.. وسيأتي اليوم الذي يكشف فيه العلم بأمر ربه علام الغيوب من دقيق الحقائق وخفِيِّ الأسرار وعجائبها ما سيجعل ما توصل إليه العلماء في عصرنا هذا من حقائق يبدو في فكر اللاحقين لنا في العصور التالية وكأنه النذر القليل نسبة إلى ما سيكتشفونه من أسرار!!.. لا تعجب.. فلكل عصر

علماؤه، ولقد عودنا الله ﷻ وأرشدنا إلى أن سنته في خلقه هي التطور عبر الأزمان والعصور!!.. وإليك ما جاء عن أسرار هذه النطفة في كتب وأبحاث العلماء، والأطباء المتخصصين العاملين في مجال بحوث علوم الطب والأحياء في عصورنا المتأخرة لتكشف لنا ما كان خافيا عن فهم وعقل السابقين!!.. الذين كانوا يظنون أنه في عداد الغيب البعيد!!.. وإنه كما سترى لأمرٌ معجزٌ ومحيرٌ عن علم ويقين!!..

إنِّي لأدعوك إلى النظر معي متفحصًا بعين قلبك في خشوع لله ﷻ إلى ما توصل إليه العلماء من حقائق مثيرة ناتجة عن أبحاثهم المضنية التي أجروها، ساهرين عليها في معاملهم؛ ينفقون في سبيلها أعمارهم ليالي وأيامًا مع مختبراتهم ودقيق الحديث من أجهزتهم لتحليل مادة خلق الإنسان!!.. تلك الأبحاث التي قاموا عليها الليالي الطوال.. وقضوا من أجلها الدهور والأزمان، في تتابع منهم وإصرار؛ جيلاً من بعد جيل!!.. عايشوها ردحًا طويلا في غير ملل ولا فتور، مشدودين ومشدوهين بما يتعنَّى لهم شيئًا فشيئًا من أسرار كانوا عنها غائبين!!.. وتاهوا مذهولين بعجائب ما يبديه الخالق ﷻ لهم من كوامن الغيب حينًا بعد حين، وهم إلى المزيد من الأسرار يطمحون، وإلى اكتشاف ما وراء ما تبدَّى لهم من خفايا الخلق هم حريصون!!.. وإلى المتواليات من المعجزات في طريق أبحاثهم يتشوقون!!.. ووراء كل جديد يتبدَّى لهم منه نبراس، أو بصيص أمل يلهجون، ويعملون من أجل الوصول إلى سره في اجتهادٍ متشوفين!!..

لقد وجدوا أن الرجل ينتج في المتوسط بين ثلاثة آلاف مليون وأربعة آلاف مليون خلية جنسية ذكرية " حيوان منوي " شهريًّا،

لمدة تتراوح بين أربعين سنة وخمسين سنة.. وأن هذه الخلية الذكرية " الحيوان المنوي " كثير الحركة والنشاط لأنه يتكون من عضلات (عدا ذيله).. وأن الدفقة الواحدة من هذا المنيّ تحتوي على مئات الملايين من الكائنات الحية(الحيوان المنوي) بالغة الدقة وظالمة الخفاء بحيث لا يمكن رؤيتها على الإطلاق بالعين المجردة، ولا تجود على ناظرها أو مَن يتفحصها بشيء من دقيق كنهها وتكوينها، أو قليل إيحاء يومي ولو ظنًّا أو شكًّا بحقيقة حيويتها وسر نشاطها، أو تثير انتباه من يبحث في أمرها ولو بالنذر القليل من خفاياها وإعجاز خلقها؛ إذ لا تبدو لناظرها في مجموعها إلاَّ كنقطة من الماء المهين لا يتعدى حجمها حجم تفلة ألقيت من فم إنسان، ولا تتجاوز درجة لزوجتها لزوجة ما يخرج من حلق الإنسان من رقيق مخاط، ولا يتسنى لنا معرفة محتواها وما فيها من أسرار إلاَّ بالتمعن والتدقيق فيها من خلال (المجهر) الذي يُكَبِّر الأشياء إلى مئات الآلاف، بل الملايين من أمثال أحجامها!!.. هذا عما يمكن معاينته من ظاهرها المرئي تحت عدسة المجهر المكبر، ناهيك عما هو كامن في أجواف بواطنها من عظيم الأسرار، وما أودع الله ﷻ في حواياها من خفايا القدرة!!.. إذ بفحص هذه الدفقة المَهينة من المَنِيّ، يظهر لنا العجب العجاب من بواطن الإبداعات، وخطير الخلق والإيجاد الذي لا يقدر على صياغته وتركيبه في هذا الجَرم الخفي إلاَّ مقدر الأقدار ﷻ .. فهذه الكائنات التي تقدر بالملايين - متجمعة فيما يشبه البصقة التي يبصقها الإنسان - تتنافس فيما بينها - بعد قذفها داخل رحم المرأة - مسرعة نحو بويضة دقيقة (غنية بالمادة الزلالية التي أرادها الخالق ﷻ أن تكون غذاءً للجنين بعد التلقيح مباشرة).. هذه البويضة تقبع هادئة مستكنة، ملتزمة كِنـَّها ومكانها في التصاق تامٍّ

ومتين فيما يسميه العلماء قناة " فالوب " حيث الطريق إلى الرحم؛ لا تغادر مكانها (ولا تتجول حتى في حرم مستقرها وحِماه) تنتظرُ مَن يقصد مكمنها ليخطب وُدَّها مِن هذه الملايين العديدة التي تتنافس جميعًا في سعيها إليها بغية الفوز بها والسكنى إليها؛ غير ضالّين الطريق إليها!!.. كلٌّ من هذه الملايين يأمل الفوز بها، في سباق عنيد.. إذ لا يتسع الأمر في ذلك المضمار إلاّ لواحدٍ فقط يلوذ بها ويسكن إليها وتحنو عليه؛ ومِنْ بعده لا يكون إلاّ الموت والهلاك لما يتبقى من هذه الملايين؛ حيث لا مأوى بعدُ لأي منها ولا سكن!!.. إذ قد عز المأوى من بعد فوز أحدهم بها كما عز السكن!!.. لأن مشيئة الخالق قضت بأن المرأة لا تنتج إلاّ بويضة واحدة كل شهر من سن البلوغ إلى مدة قلّما تزيد عن ٣٥سنة.. وهو ما أطلق عليه العلماء اسم(سن اليأس) (اللهم إلاّ في حالات نادرة خرقًا للعادة وإظهارًا لطلاقة قدرة الخالق على خرق النواميس؛ وأنه ﷻ يفعل ما يشاء.. وتكون تلك الندرة ظاهرة في حالة الحمل بالتوائم)..

وهنا تساورني لطيفة عجيبة.. وهي أنه لو تخيلنا قدرة مِبْيَضَي المرأة على توفيرعدد من البُوَيْضات بقدرالملايين المنوية التي تتوفر في دفقة الرجل لتسنى لامرأة واحدة أن تنجب من دفقة واحدة للرجل ما يشكل سكان عدة دول مجتمعة في نفس الوقت وآنية اللحظة!!.. فسبحان الله مقدر الأقدار!!{وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨]!!.

وبالعودة إلى موضوعنا المتميز والعجيب؛ نجد أن الحرص على الحياة والتشبث بها قد دفع بهذه الملايين جميعًا في سباق هو الأشد من نوعه على الإطلاق في عزم وحرص وإصرار أكيد؛ طلبًا لديمومة الحياة، وطلبًا للخلود، وحُبًّا في البقاء، إذ إن باقي الملايين يموتون بعد فوز أحدهم بهذه البويضة - فكل واحد من هذه الملايين

المنطلقة في طريقها إلى الرحم عبر قناة " فالوب " يمثل مشروع إنسان كامل متكامل من بني البشر!!.. وعند فوز أحد هذه المخلوقات العجيبة الدقيقة - الفاهمة لمسعاها، المدركة لغرضها، المُحَدِّدة لهدفها - بهذه البويضة الوحيدة (ولا يكون ذلك الأمرمتاحًا إلاَّ للأقوى من بينها والأنشط بطبيعة الحال)؛ يخترق جدارها فتحتضنه بدورها قابضة عليه من فورها، مستأنسة به في تلبس تام، وحريصة عليه في وُدٍّ وحنان وحميمية صادقة وعشق فطريٍّ؛ معتزلة به تلك الملايين الباقية من بعده؛ الحائمة حول جدارها الخارجي دون جدوى من هدف أو أمل يرتجى؛ ووسيلتها في ذلك تكمن في إفرازها سائلاً غليظًا متينًا، تُحيط بها جدارها الخارجي، فيحول ذلك بينها وبين أيٍّ من الملايين المتبقية؛ فلا يكون في قدرة أيها ولا استطاعته التمكن منها بحال من الأحوال من بعد ولوج ذلك الكائن الفَتِيِّ المحظوظ الذي سبق الجميع ولاذ بها؛ واحتضنته احتضان العاشقين!!..

وما هي إلاَّ هُنَيْهات من الوقت حتى يمتزج الضيف وربة البيت ويصهرهما الحب حتى يصيرا كيانًا واحدًا، ونواة لإنسان جديدٍ.. مقبلاً على الحياة غير مدبر (فيا سبحان الله العظيم!!..).

وتتوالى المراحل، وتتطور الأطوار؛ بعد التلقيح والالتصاق بجدار الرحم طلبًا للحماية إلى أن يمر ما يقرب من تسعة شهور من ساعة اللقاء بين المَنِيّ والبويضة حيث يشقّ هذا المخلوق طريقه إلى هذا العالم الدنيوي إنسانًا سويًّا كاملا غير منقوص (فتبارك الله أحسن الخالقين!!..). ويذكر لنا القرآن العظيم هذه الأطوار التي يمر بها هذا المخلوق العجيب الذي أصله الأول (آدم عليه السلام) من الماء الممزوج بتراب الأرض، وتناسله بعد ذلك إلى يوم الدين يكون من ماء

مهين فيقول ﷻ: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾} [المؤمنون: ١٢ - ١٦].. فيا سبحان الله!!.. ويا سبحان الله العظيم!!..

بقى أن تعرف أخي القارئ أن الحيوان المنوى هذا الذي سابق الملايين الذين كانوا معه من بني جنسه وسبقهم؛ بعد أن التقى بالبويضة واندمج معها في انسجام ونسيج واحد يتكوَّن منهما معًا ما يسمى بالخلية الأولى لصنع وخلق الإنسان!!..

ومن المسلم به.. أنه من تأثير هذا الأمر العجيب الذي أذهلني ووقف أمامه مليًّا عقلي ووجداني في استغراق فكريٍّ عميق، وأصابني بغيبوبة فاقت كل تقدير - عن نفسي وعن كل من حولي وما يحيط بي من الوجود؛ لِمَا تخيلتُ وتيقنت من قدرة الخالقﷻ - أنِّي خرجتُ على إثر هذه الغيبوبة أشد خشية لله ﷻ.. وأشد حبًّا له ﷻ إذ خلقني - مثلما خلق غيري - من هذا الجُزَيْءِ الذي لا يلاحظ ولا يرى من الماء المهين، وإذ جعلني على هذه الصورة الحسنة؛ قائمًا بذاتي.. أعي وأتدبر.. أرى وأسمع.. أتحرك وأتكلم.. آكل وأشرب.. أسعى وأعمل.. أحزن وأفرح.. أتلذذ وأتألم.. لي ظاهرٌ واضحٌ جليُّ المعالم لكل من سواي.. وأحوي في باطني عالَمٌ مُبْهَمٌ لا يشعر به غيري.. ولا يعايشه من هو دوني!!..... الخ.

ولعلك تصطحبني بفكرك ووجدانك إلى ما عايشت من عجائب الخلق في هذه الرحلة المحاطة والممزوجة بالمعجزات.. لعلك تعجب

مما عجبت له، بل لعل الذهول يأخذ منك مأخذه كما أخذني إذا علمت أن تجميع مليـون خليـة من هذه الخلايـا(المكونـة من الحيوان المنـوي الواحد والبويضة) تـكَـوِّنُ حجمًا وحيِّزًا لا يجاوز بأي حال حجـم وحَيِّـزَ حَبَّة العدْس ليس إلاَّ!!.. ولعلك تأخذك الحيرة كما أخذتني أيضًا إذا علمت أن حجم هذه البويضة يفوق حجم الحيوان المنوي - الذي اخترق جدارها واجتازه إلى داخلها متخذًا منها سكنًا وكِنًّا - بنحو خمس مائة مرة من حجمه!!.. وإني لأدعوك إلى التأمل تعبدًا للخالق ﷻ؛ وأنت تشاهد معي في خشوع وخضوع إبداعات القدرة الإلهية بعين قلبك ونور بصيرتك وأنت تحقق معي النسب العلمية الحقيقية الدقيقة لهذه الكائنات التي هي أصل تكويني وتكوينك، وأساس خلقي وخلقك، ومادة إيجادي وإيجادك.. تلك المادة المكتشفة عن طريق (المجهر) عبر المعامل والتحاليل الطبية في عصرنا الحالي.. أدعوك أن تتأمل معي كيف وكم يكون حجم الحيوان المنوي (الذي هو بذرة الإنسان) وما هو نصيبه الذي يشغله من حيِّـز دفقة منـيّ تماثل البصقة حجمًا وحيِّزًا، وتحتوي على مئات الملايين من أمثاله!!.. لا نملك بعد طول إمعان وتفكر إلاَّ أن نعود خاشعين مُسَلِّمين بخوارق القدرة وطلاقتها لـربِّ العـالمين.. فحَقٌّ لـه علينـا أن تنطـق ذرات أجسامنا، ومـدارك عقولنـا وظـواهر حواسنـا، ومـا خفـي منـا ومـا بـدا مـن جَلِـيِّ الآيـات وبواطنها.. ينطق جميعنا بحمد الله وشكره على سابغ نعمه الظاهرة والباطنة علينا، وعظيم آياته وباهر آلائه.. موحدينه تهليلاً إحقاقَ حقٍّ ونحن بين يديه في رقٍّ وخضوع.. ومُكَبِّرينـه عِزَّة وتعظيمًا في ركوع منا له وخشوع.. ومُسَبِّحينه كما ينبغي له التسبيح في تسليم وسجودٍ.. حامدينه حمدًا مَلَـكَ مِنَّـا القلوب والعقول، يلازمه منا الوجدانُ شاديًا بالحب له والإجلال!!.. فيا سبحان الله العظيم!!.. ويا

سبحان الله العظيم!!..

وإليك هذا البيان التوضيحي لما سقناه إليك عن علم ومشاهدة ويقين:

* حجم البويضة = حجم ٥٠٠ حيوان منويّ مجتمعين!!.

* حجم الحيوان المنوي = حجم جزء من مئات الملايين من الأجزاء التي تحويها دفقة المنيّ الواحدة (التي تماثل في ظاهرها بصقة يكون قد بصقها الإنسان من فيه)!!.

* مليون خلية (كل منها مكونة من دمج حيوان منوي واحد وبويضة واحدة معًا = حجم وحيِّز حبَّة عدس واحدة!!.. وعن حجمها أبدًا لا تزيد!!..

بعد الخروج من هذه المعادلة الجلية الواضحة: بالله عليك كم يكون حجم الحيوان المنوي هذا الذي هو أصل التناسل في الإنسان؟!!..

أظُنُك لا تملك - كماهُوَ حالي - إلاَّ الخشوع والخضوع والتسليم التام لصاحب القدرة المطلقة الذي هو بكل شيءٍ عليم وعلى كل شيء قدير!!.. وسبحان الله العظيم!!.. والحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين.. سبحانه له الحمد دائمًا سرمدًا أبدًا ما حييت.. وعند الممات.. وبعد الممات.. وعند بعثي ماثلاً أمامه، وبين يديه في تعبُّدٍ وخشوع؛ إجلالاً له وتعظيمًا مُسْتَحَقًّا له يوم الدين!!.. مسبحًا له بحمده، ومعترفًا له بفضله وقدرته!!.. سائلاً إيَّاه عفوه ورحمته سبحانه وتعالى إنه هو الرحمن الرحيم..

يا سبحان الله!!.. نقطة ماء [النطفة] تحوي مئات الملايين من

الحيوانات الذكرية!! - يندمج منها واحد فقط في بويضة أنثوية واحدة حجمها نحو خمس مائة مرة من حجمه!! - ينتج من دمجهما معًا خليَّة مُلَقَّحَة؛ حجمها يمثل جزءًا من المليون من حجم حبة العدس؛ لا يجاوز حَيِّزَها ولا يزيد عنها!!..

يا ترُى؟!!.. ما حجم الحيوان المنوي الذكري الواحد الذي يخرج من صلب الرجل إمناءً عبر عضوه التناسلي ليكون مشروع إنسان كامل؟!!.. سبحان الله!!.. وسبحان الله!!.. دائمًا من يوم الإنشاء إلى يوم الدين!!..{أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ} [الواقعة: ٥٨ - ٥٩].. بل أنتم يا ألله.. سبحانك سبحانك.. لك الحمد دائمًا ولك الشكر.. أنت رب العالمين..

وهناك لطيفة مُلِحَّة، راودتني وشاغلت فكري في إصرار وعناد!!.. وهي تستحق عن جدارة أن نقف أمامها متأملين في خشوع عميق، وإجلال مطلق لله رب العالمين!!.. فمِن عظيم صنع الله ﷻ.. أن جزءًا من مئات الملايين من الأجزاء السابحة في نقطة ماء تمثلها دفقة المنيّ هذه يكمن فيه سرٌّ نعمة البصر عبر عينين لا ندري كم كان حيِّزهما فيه؟!!..، ونعمة السمع عبر أذنين لا ندري أيَّ حيز فيه يسعهما؟!!..، ونعمة الشم والتنفس عبر أنف ذي فتحتين يميِّز بهما بين الريح الطيب والخبيث لا ندري أيَّ مستقر فيه قد حواه؟!!.. وقصبة هوائية إلى رئتين وجهاز تنفسي شائك التركيب، ومعجز في انسيابية العمل لا ندري كيف أعَدَّ ونُظِّم فيه؟!!.. ومَرِّيء إلى معدة وأمعاء وجهاز هضمي تحيَّر فيه المتخصصون في الطب في كل زمان ومكان؟!!.. وكليتان تعملان على تنقية الماء قبل بثه في أنحاء الجسم حتى لا يضار مما قد يكون عالقًا بالماء من مضار، وتطرد الغير صالح، الجالب للأذى والمسبب للأمراض

والعلل منه خارج الجسم عبر جهاز بولي دقيق؟!!.. وجهاز دوْري على رأسه القلب يعاونه الكبد في تنقية الدماء التي هى في الجسم، سر الحياة، والتي يستجلبها من الطحال الذي هو مخزن الدماء، وأوردة وشرايين يُضخ عبرها الدم إلى سائر أنحاء الجسم من أقصاه إلى أقصاه؟!!.. وفم ذو شفتين ولسان يتكلم ويتذوق الأطعمة ويميز بين البارد والحار، وبين اللاذع والمستثاغ، وبين الحلو والمر؟!!.. وبداخل هذا الفم تكمن الأسنان على تنوع درجا تها ووظائفها في القطع والطحن والتمزيق والتكسير مثبَّتَة في لحم إسفنجيٍّ عجيب (اللثة)، وغدد لفرز سائل خاص يطهر الفم مما قد يكون فيه من (ميكروبات وجراثيم) ويساعد على تحليل الطعام وتليينه ليساعد على طحنه وبلعه؟!!.. وأمعاء تمتص خيرات الطعام وتطرد إلى الخارج ما لا فائدة منه تذكر عبر المستقيم؟!!.. ناهيك عن الساقين والقدمين بأصابعهما المسواة، والساعدين والكفين وأصابعهما وما فيهما من أسرار الحركة والحس، وفوق كل هذا عقل يفكر، ويتدبر، ويدبر، ويعي ويفهم، ويزن الأمور، وللعواقب يقدر ويُقَوِّم، ويحتاط حيطته لتداعيات التصرفات، ومُصَرِّفات الأمور؟!!..

والكثير الكثير من الأجهزة والأعضاء التي تخصص فيها المتخصصون!!.. وناءت بها كتب الطب ومراجعه، وأنَّت من كثرتها أبحاث الباحثين، ودراسات الدارسين!!.. وخشعت أمامها عقول العلماء والأطباء ساجدة للخالق الوهاب؛ الله رب العالمين!!..

كل هذا وأكثر مما لم يأذن لنا الله ﷻ بثبر أغواره وكشف أسراره بعد.. فهناك الكثير المدَّخر لما هو قادمٌ على الدنيا من العصور، وإلى يوم الدين؛ إذ لكل عصر رجاله وعلماؤه.. يظهر الله

ﷻ على أيديهم ما كان قد خفِيَ عن عقول ومدارك من كانوا عليهم في الخلق والإيجاد والبعث إلى هذه الدنيا سابقين!!..

كل هذا الكشف ومحتوياته العظيمة الخطر، نلحظه أسرارًا كامنة في مخلوق ضعيف مهين لا يتعدى حجمه جزءًا من مئات الملايين من الأجزاء من نقطة ماء لا يُرى منها شيء إلاَّ بتكبيرها إلى مئات الملايين من حجمها تحت المجهر، لا يُرى ظاهر ما فيها إلاَّ كائنات تسبح في حيز نقطة الماء التي تحويها؛ فهيَ فيها وفي داخل محيطها تسعى وتدور؛ لا تتجاوزه إلى خارجه بحال من الأحوال؟!!.. لأنها تعلم أنها لو تجاوزت حيز هذا الماء تموت.. فسبحان من خلقها وعلـَّمَها وهداها وأودع فيها أسرارها!!.. تـُرى ظواهرُ كائناتها دون بواطنـُها.. فما أخـْفِـيَ في داخلها هو الأعظم.. وسبحان الله العظيم رب العالمين!!.. ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليّ العظيم!!..

ومن عجب العجاب في هذا الأمر ما أثبتَ للعلماء عبر معامل التحليل أن كل هذه الأعضاء كامنة في رأس هذا الكائن المنوي دون ذيله؛ إذ تجتمع في الرأس وحده أربعة عشر مليون خلية عصبية؛ وإذ جُعِل الذيلُ فيه أداةً لتوجيه حركته سباحة في سائله، وعبر قناة " فالوب " السابق ذكرها ليتسنى له الوصول إلى البويضة التي تكون له مقـَرَّ سكن ومَوَدَّةٍ ورحمةٍ وأمان، وقرار وأمن!!.. فسبحان من خلق فسوَّى ثم قدَّر وهدى!!.. إنه الله ﷻ خالق كل شيء وهو رب العالمين!!..

وتراودني هنا نكتة دقيقةٌ، ولطيفة رقيقةٌ؛ إذ وجَدْتـُني أعالج هاجسًا مباغتـًا ساورني ثم غلبني؛ آخذا بي - في هدوءٍ نشوىً عجيب

- مُسَلِّمًا إيَّاى إلى شاغلة استأثرتني.. وغيبتني هنيهاتٍ مع خاطرة استحوزت عليَّ نُهىً ووجدانًا مع أمر يستحق الوقوف عنده في تمعن وتدبر.. إذ كأنَّ بي وأمر الزواج في هذه الحياة الدنيا مُورَّثًا (بيولوجيًّا) عمَّا كان يدور في عملية التلقيح هذه داخل الرَّحم؛ إذ إن البويضة تكون قابعة في كِنٍّ وسكون ملتزمة جدار الرحم لا تتحرك من مكمنها؛ ومَنيّ الذكر هو الذي يسعى إليها متنافساً مع غيره، طالبًا وُدَّها، وخاطبًا إيَّاها حتى يفوز بها في وئام يسود بينهما تدثره المودة والرحمة.. فإذا ما تحقق لأحد هذه الملايين المتنافسة هذا المطلب المستهدف (بالطبع) من الجميع سعيًا واجتهادًا وسبقًا لأقرانه.. فإذا ما سبق أحدها الجميعَ معلنًا فوزه بها غلَّقت هى أبوابها دون الآخرين.. غير سامحةٍ لغيره أن يقربها من بعده على الإطلاق!!.. (أليس هذا تطبيق للحديث الشريف: لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه)؟!!..، ثُمَّ؟!!.. ألست تقر معي بأن هذا هو الواقع في هذه الحياة الدنيا؛ إذ أن الأنثى تظل قابعة في بيت أهلها مصونة مُكرَّمة محفوفة بأسباب العناية والحفظ.. والذكر هو الذي يصنع ما في وسعه من سعي حتى يسبق غيره فيخطب ودها؛ فإذا ما تم له هذا الأمر أ غلِقَ بابُها دون غيره؛ فلا يجوز لغيره أن يتقدم لخطب ودها بعد تمام مسعى هذا الأول المشروع، وبعد أن فاز بها وولج عليها باب بيتها؛ مُرَحَّبًا به منها؛ إذ لا يتم ذلك إلاَّ بعد استئمارها وموافقتها؟!! (تطبيقًا للحديث الشريف: لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه).. (تستأمر البكر.. وقبولها صمتها).. فسبحان الله مقدر الأقدار.. والخالق لكل شيءٍ ثُمَّ هدى!.

* * *

نشأة وتناسل

يا مَن أبــوكَ الأوَّلُ قــدْ خُلِّــقَ ::: في أصْله منْ طينــة قــدْ سُــوِّيَتْ
والنسْلُ منهُ دافــقٌ مــنْ صُــلبه ::: حَيْثُ الخلائفُ للحَيَــاة أوْجــدَتْ
ماءٌ مَهــيَنٌ دافــقٌ لَــيْسَ يُــرى ::: ما قدْ حَوَى منْ كائنات خُلِّقــتْ
يَحْوي بُذورًا حَرثُها حَيْثُ الــرَّحِمْ ::: فيه الآلاف مــنْ ذراري أ لِّفــتْ
بالسَّبْق منها واحدٌ إذ قــدْ يَفُــزْ ::: بالحَاضنةْ.. إيَّاهُ ضمَّتْ واحتــوَتْ
إذ تحْتَــــضنهُ في حَنـــــان دافيء ::: بين حَنَايا جَوْفهــا قــدْ أَسْــكَنتْ
هامَتْ به.. بَاتا مَــشيجًا جُنَّــساً ::: بالمَيْج صارا نطَفــة قــدْ خُلِّقــتْ
والنُّطفة.. طوْرًا فطوْرًا قــدْ نمَــتْ ::: في أحْسَن صُوراها قــدْ سُــوِّيَتْ
جاءَتْ إلى الــدُّنيا كيانــا قائمًــا ::: في ذاتــه.. وَالآىُ فيــه خبِّئَــتْ
منْ كــلِّ أسْــباب الحَيَــاة زُوِّدَ ::: إنْ ظاهرًا.. أوْ باطنا قدْ أكْملــتْ
الرَّأسُ منهُ قدْ حَوَى كُلَّ العَجَــبْ ::: فيه آيَــاتٌ في أ مُــور عُــدِّدَتْ
يَقدُمْها عَقلٌ ضــابط مُــسْتحْكَمٌ ::: كَلُّ الأ مُور بالنهى قــدْ نُظِّمَــتْ
بــالفكر وَالتــدْبير فــضْلاً مُيِّــزَ ::: خطواتهُ بالحكمَة قــدْ أحْكمَــتْ
والناظران كاشــفان كُــلَّ شــيْ ::: منْ نورها آىُ الوُجُــود كُــشِّفتْ
بيْنَ الصِّحاب وَالعدا قــدْ مَيَّــزتْ ::: وَقعَ الخطا عندَ المَــسير حَــدَّدّتْ
والسَّامعان وُجِّها صَــوْبَ الفــضا ::: ما تلتقط منْ كُلِّ صَوْت قدْ وَعَتْ
صَوْتَ الحَبيب وَالعَدُوِّ وَالطــرَبْ ::: وَالحُزْنَ إذ بيْنَ الجَميــعً فرَّقــتْ
والأنفُ فيها مَــدْخلٌ يَسْتنــشقُ ::: سرَّ الحياة في الهوا.. قَــدْ أفــرَزَتْ
والرِّيحُ منــهُ الطيِّــبُ والمُــزْدَرَىَ ::: قدْ مَيَّزَتْ.. كُلاًّ جَميعًــا حَققــتْ
والثغرُ مَرْسُومٌ.. تعْلــوهُ الــشَّفا ::: في رَوْنق.. إنْ أ فرجَتَ أوْأطبقــتْ
يَحْوي اللسانَ الناطقَ إذ يُفــصحُ ::: عَمَّا يُرَادُ مــنْ أ مُــور أ بْهمَــتْ
هُوْ للطعــام وَالــشَراب مــدْخلٌ ::: أسْنانهُ فــوْقَ اللثــة قــدْ ثبِّتــتْ
مَضَّاغة للــزَّاد هــيْ إذَ تطحَــنُ ::: كَسارة للعَظْــم إنْ قــدْ مُكِّنــتْ
في البَسْمَ تبْدُو كَــاللآلي صُــفِّفتْ ::: مثلُ اللوَاتي منْ بحَــار أُ خْرجَــتْ
والوَجْهُ كــلٌّ أ كْمــلَ في دقــة ::: وَالوَجْنتــانَ للمُحَيَّــا جَمَّلــتْ
هذا المُحَيَّا ذو آياتَ قــدْ بَــدَتْ ::: والكُثْرُ منــها باطنــاتٌ أُخفيَــتْ

هذا المُحَيَّا قــدْ عَــلا فــوْقَ بنــا ::: ء.. يَحْو آيًا عَنْ رُءاهــا حُجِّبَــتْ
سُبْحان مَنْ سَوَّى الحسانَ كُلــها ::: مِّنْ هَيِّن الماء.. وَبالفضل سَــمَتْ
مــاءٌ مَهــينٌ للوُجُــود أ خــر جَ ::: قَدْ أ بْدعَ في صُورَة.. قدْ كُرِّمَــتْ
هُوْ الــسَّيِّدُ ذَو قامَــةَ مَرْفوعَــة ::: إنْ قائمًا، أوْقاعدًا، ما طأ طــأ تْ
فيــه اليَــدان تخــدمَاهُ طاعَــةً ::: للخدْمَــة مَهمَــا أرادَ سُــخرَتْ
إنْ قدْ شكا الجُوع وإن عاني الظما ::: هَبَّت إليــه همَّــةً مــا قــصَّرَتْ
راحَتْ وَجاءَتْ حَيْثُ فيه بالطعــا ::: م وَالشرَاب.. ألقمَتــهُ وَأسْــعَفتْ
في حين كُــلّ الكائنــاَت دُونــهُ ::: للزّاد مَدَّتْ أعْناقها.. قدْ أُخْضعَتْ
قدْ كانَ هذا كنزُ أسْــرَار خفــتْ ::: في جُزْء منْ مليون جُزْء قــسِّمَتْ
في دفقة منْ هَــيِّن المــاءً جَــرَتْ ::: من صلب إنس خُلِّقتْ حَيْثُ أتتْ
سُــبْحَانَ رَبِّ العــالمينَ القــادر ::: أسْرارُهُ بالقــدْرَة قــدْ عُوينــتْ
منْ أمْره بالقوْل كُنْ قدْ شــوهدَتْ ::: المُعْجــزاتُ البــاهراتُ جُلِّيَــت

* * *

بعد أن سردت لنا آيات الواقعة التي نحن بصددها هذه الأطوار العجيبة التي نمر بها عبر رحلة الخلق والإيجاد والتي تضخ إعجازا تلو إعجاز في تتابع وتوالي غير منقطع حتى خروجنا إلى هذه الحياة.. ثم نصبح قادرين عليها تسخيراً لنا بأمر الله الذي هو ربنا وربها، وخالقنا وخالقها.. تعود بنا آخذة إيانا إلى نهاية المطاف لرحلة الإيجـــــاد..{حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤].. إذ بعد أن يشتد العود.. وتقوى البنية.. ويبلغ بنا التلذذ بمتاع الدنيا مداه.. وظننا البلوغ إلى كمال القدرة عليها.. ويغلب علينا الإحساس بالطمع في البقاء والتخليد فيها.. أقول: ونحن على هذا الحال، وفيه منغمسون، وعليه حريصون، إذ بالآيات تجذبنا جذبًا إلى النهاية الحتمية التي لابد منها وقت أن تحل ساعة الرحيل!!.. تبادرنا الآيات في صدق عظة

وحق يقين حتى نفيق من إغراءات الدنيا، وننفض عن أنفسنا التعلق بزينتها.. مستدركين ما كان من أمر لهونا وغفلتنا؛ فنتوجه إلى الخالق ﷻ تائبين إليه، وله منيبين.. مشمرين له في اجتهادٍ عابدين.. متوجهين إليه بالشكران، حامدين له ما والانا به من سابغ نعمه الظاهرة والباطنة إقرارا منا، واعترافا بفضله طائعين.. ونعمل لما هو آت - بعد هذه المرحلة الذاهبة - من طور جديد.. حيث وقت تلقي السؤال من الله رب العالمين عما كان منا من العمل، والحال الذي كنا به في الحياة الدنيا قائمين، وما كنا فيه خُوَّاضًا مع الخائضين، الذين كانوا في فتن الدنيا مغمورين.. فتستتبع الآيات ما استعرضته لنا من أسرار الخلق، وإعجاز الإيجاد؛ بعرض سكرات الموت الذي هو قادم لا محالة، وعرض حالة مفارقة هذه الحياة الدنيا بلا أمل في عودة أو رجوع.. حيث نكون إلى الرحمن ساعين، بين يديه سبحانه قائمين، وللسؤال عن كل ما سبق منا وكان معروضين.. إنه موقف عرض الختام في يوم الدين؛ فتخاطبنا الآيات مواجهة خطاب الحضور: {**نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ**} [الواقعة: ٦٠- ٦٢]. وهذا هو نفس المنطق الحق الذي تعرضه علينا سورة (المؤمنون) بعد ذكر آيات الخلق والإيجاد.. إذ تردفه بآية الموت الذي هو بمثابة بوابة الولوج إلى ما يلي مرحلة وطور الحياة الدنيا من مراحل وأولها الانتقال إلى الحياة البرزخية في طريقنا إلى الحياة الآخرة التي تمثل الطور الآخير في رحلة بني الإنسان.. إذ تخاطبنا من خلال الآيتين(١٥، ١٦) مذكرة إيَّانا بما نراه ونعايشه كل يوم من انتقال ورحيل لبعض منَّا ممن حانت ساعتهم وقضيَ أجلهم؛ فتلفتنا إلى هذه الحقيقة الحتمية التي لا تأويل فيها ولا جدال قائلة:{**ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**} [المؤمنون: ١٥ - ١٦]..

* * *

الموت وما أدراك

أين المفر

يا نفسُ جُودي.. بالدَّمْع جُـودي ::: عَـزِّي الحيَـاةَ.. قبْـلَ الجُمُـود
منْ فَرْط هَمِّي.. غـابَ الأَمـانُ ::: جَفتْ عُيوني.. وَالْتـاعَ عـودي
ما عادَ دَمْعـي.. يَجْـري بعَـيْني ::: جَفت دُمُوعي.. غارت خـدودي
إنِّ دُنيـتُ.. مـنْ يـوْم أَغـدو ::: فيـه غـذاءً.. سَـهْلاً لـدود
نَهَّاش لَحْم.. مـنْ كُـلِّ جـنس ::: نَهَّـام أَكْـل.. مـلْءَ اللُّحـود
والأمْرُ منْك.. مـا قـدْ عَلمْـتَ ::: جسْمٌ مُـسَجَّى.. رَهْـنُ القيـود
والْحسُّ فيَـه.. مـلْءُ الـشعور ::: وَالسَّمْعُ حُرٌّ.. مـنْ كُـلِّ قيـدَ
لا تـسْتطيعي.. دَفْـعَ الـبلاء ::: فا لأَيْدُ غُلتْ.. مـنْ غيْـر قيـد
أيْـنَ المَفـرُّ.. مـنْ هَـوْل قـبر ::: فيه الوُحوشُ.. مـنْ كـلِّ وادي
جاءتْ تَهـادَى.. نَحْـوَ المُـسَجَّى ::: حـتىَّ تنـالَ.. مـنْ خـير زاد
خُضْتُ الحياة.. منْ أجْل غيْـري ::: وَاليَوْمَ قبْـري.. حَـدَّ حُـدودي
ألقىَ السُّؤالَ.. عَنْ كـلِّ شـيْء ::: مالي.. وزَوْجي.. بيتي.. وليـدي
رَحمي.. وَبرِّي بـا لوَالـدَ يـن.. ::: جاري القريـب.. أوْ ذا البَعيـد
قوْلي.. وفعْلي.. نفَـسي وَديـني ::: وَالْحا ل مـني.. خـاف وَبـادي
عُمْري.. شَبابي.. قبْلَ الْمـشيب ::: بالْجَمْع كُلٍّ.. طوِّقـتُ جيـدي
والنـارُ صَـوْبي.. يَعْلُـو نـداها ::: يَدْوي صَداهُ.. هَـلْ مـنْ مَزيـد
ها قدْ عَلمْت.. يا نفـسُ حـالي ::: بَعْـدَ الْمَمـات.. إنْ لمْ تعـودي
هلْ مـن رُجـوع.. لله أوْبـا.. ::: للتـوْب هيـا.. قبْـلَ الرقـود
عَـوْدًا لـرَبٍّ.. بَـرٍّ غفـور ::: يَمْحُ الذُّنوبَ.. مـنْ غَيْـر قيـد

* * *

الفصل الثاني

أسرار الإعجاز في إنبات الـزرع

الفصل الثاني
أسرار الإعجاز في إنبات الزرع
وتجانسه بأسرار خلق الإنسان

في هذا الفصل يتجلى لنا مشهدٌ جَلِيٌّ مُثيرٌ.. تحكيه لنا الآيات بعد أن لفتت عقولنا وضمائرنا إلى أصل إيجادنا بالتناسل من خلال الماء المهين الدافق من الأصلاب، وما نمر به من أطوار متتالية ومتتابعة في تناسق رائع عجيب خلال رحلة خلقنا الفريدة المكتظة بآيات الإعجاز والإبداع.. إنها قصة الحب الصادقة بين الخالق والمخلوق " كنتُ كَنـْزًا مَخْفِيًّا فأحببت أن أُعْرَف؛ فخلقت الخلق؛ وبي عرفوني " (حديثٌ قدسيٌّ شريف).. تلك القصة التي كانت بدايتها مزجُ بعض من الماء مع بضعة من التراب ثم تناسلت بعد ذلك من دفقة من ماء مهين؛ لتتحول بعد ذلك من نطفةٍ إلى علقة (بعد تلقيح البويضة الأنثوية بالمنوي الذكري)؛ تمهيدًا لتخليق المضغة (الناتج عن تمام تمازج كلاهما بالآخر).. والتي تمثل النسيج الأساسي الذي يتكون منه الهيكل العظمي للإنسان؛ حيث يغطيه بعد ذلك ويلفه جهاز عصبي وحِسِّي دقيق للغاية.. وهذا الجهاز العصبي عبارة عن شبكة كهربية عجيبة، شديدة الحساسية، تزود الكائن الذي أُنـْشِئَتْ فيه بكافة المعلومات، وتدير كل الحركات والسكنات في نشاطه الدائب، وتُعَرِّفهُ على العالم الخارجي المحيط به.. وهو ينتشر عبر أنسجة من اللحم تتخللها أيضًا الأوردة والشرايين ممتدة إلى كل خلية من خلايا الجسم، وكل نسيج من أنسجته.. وأنسجة اللحم هذه بما تحويه من أسرار ناقلاتِ الدَّم لجميع خلايا الجسم من الأوردة والشرايين.. وبما تخفَّى فيها من شبكة الاتصالات الكهربية هذه الممثلة في الجهاز العصبي، والتي عن طريقها ومن خلالها يرى هذا المخلوق العجيب المحير معالم الدنيا وآفاقها.. وما يدور فيها من

أحداث!!.. فيشعر بحرارة الجو المحيط به وبرودته مُقَدِّرًا درجة كلٍّ منها.. ويعرف النور والظلام ويميز بينهما.. ويتعرف على الجمال فيتقبله ويحبه.. ويتعرف على القبيح وينفر منه ويصُده.. ويعرف ما ينفعه فيسعى إليه ويفرح به.. ويعرف ما يسوؤه ويغضبه فيحزن لرؤاه ويدفعه إن استطاع أو يهرب منه.. هذا الجهاز المتصل بجميع الحواس (من عين وأذن وأنف ولسان وجلد... إلخ..) وينقل إلى كلٍّ حاسة ما يخصها من الرؤيا والسمع والشم والذوق واللمس.... إلخ.. وكل هذا عبر إشارات يرسلها هذا الجهاز من أطرافه الحسية إلى الدماغ بواقع مليون رسالة في الثانية الواحدة حيث يحللها ويدرك معانيها ومراميها؛ ويكون على ضوء التحليل المستمر صدور الأفعال وردود الأفعال!!.. وفي النهاية فإن هذا النسيج اللحمي المدعم بهذه الأجهزة الخطيرة يكسو الهيكل العظمي ليصير في نهاية المطاف خلقًا مُبْدَعًا غاية الإبداع، مُعْجِزًا غاية الإعجاز.. فيا سبحان الله!!.. إنها قصة مشوقة غاية التشويق.. إنك لتعجب معي إذا علمت أن هذه الأجهزة الدقيقة والخطيرة كلها كانت مكنونة في جزء من ملايين الأجزاء من نقطة الماء التي هي أصل الإنسان.. كيف ذلك؟!!.. وأين كان مكانها فيه؟!!.. وما الحيز الذي كانت تشغله؟!!.. وما حجم وكُنْه هذا الحيز؟!!.. لا تسأل!!.. بل توجه معي بالخضوع والعرفان لخالق الإنسان ﷻ!!.. وصدق الحق ﷻ في قوله الحق:{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾} [المؤمنون: ١٢ - ١٦].

بعد أن ذكرت لنا الآيات الكريمة معجزة خلق الإنسان

بأطوارها وتتابع مراحلها، كان لابد لها من أن تُذكّرنا بما يلي مرحلة الحياة الدنيا هذه من مراحل؛ ألا وهي مرحلة الموت؛ منبهة إيَّانا بأن الذي خلقنا هو وحده القادر على أن يميتنا، ألا وهو الله ﷻ المحيي المميت، فتُذكّر الجميع منبهة - وبخاصة هؤلاء الذين يُنكِرون البعث بعد الموت - بقدرته ﷻ على إعادة الحياة بالبعث بعد الموت.. فإنه كما قَدَرَ ﷻ على الخلق الأول والإيجاد من العدم أول مرة، فهو قادرٌ على الإعادة من باب الأولى.. بل إن ذلك عنده هو الأسهل والأيسر.. إذ إن جميع النتائج خلال مراحل تقلب الخلق في أطوار الإيجاد عنده سواء.. وهي واردة ومشاهدة مشاهدة عيان في كل وقت وفي كل مكان؛ حسب مشيئته ﷻ.. إذ إن هذه النطفة المُمْناة والمخلقة بأمر ربها من الماء المهين قد تكتمل مراحل خلقها وتخرج إلى هذه الحياة الدنيا بشرًا سويًّا كاملاً غير منقوص ممثلاً في هذا المخلوق المعجز.. وقد لا تكتمل مراحله وهو داخل الرحم ويخرج إلى هذه الحياة الدنيا سقطًا غير مكتمل (دمًا أو قطعة لحم فاسدة قبل تمام أطواره) بعد أن مر ببعض مراحل التطور داخل الرحم.. وقد تفسد النطفة أصلاً ولم يتخلق منها شيء من البداية أو بعد البداية بقليل!!.. فسبحان الذي إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون!!..

وهنا تسوق لنا الآيات مثلاً توضيحيًّا مما هو قريب منا معايشة وتطبيقا؛ ويمر في خلقه بأطوار تتشابه (بل وتتماثل) مع أطوار خلقنا نحن البشر.. وقد تتم مراحله فيخرجه الله ﷻ خلقا آخر مباركا يزهو نماءً وثراءً (كما في حالة الإنسان).. وقد يفسد بعد تقلبه في بعض مراحله؛ فلا يكتمل نموًّا، بل يَضُخ فسادًا وخسرانا.. هذا المثل الصارخ الوضوح.. الجلي الإبداع والإعجاز.. هو آيات الإعجاز في الزرع والإنبات!!.. الإنبات الذي يمثل حجة دامغة تؤكد قدرة الله المحيي

المميت ووحدانيته ﷻ في الخلق والإيجاد، والبعث والإبداع، والإعجاز في خلق ما يشاء ﷻ .. فهذا الزرع الذي هو قوتنا وغذاؤنا.. وعليه قوام حياتنا.. أشبه ما يكون مراحلا وأطوارًا في زرعه وإنباته بما يمر به خلق الإنسان من مراحل وأطوارٍ متماثلة في الخلق والإيجاد، ثم الموت وما يليه من بعث ونشور!!.. ويا سبحان الله العظيم!!.. إن المتأمل في عملية الزرع - الذي نتخذ منه قوتًا وغذاءً - يجد فيها الصلة الوثيقة المرتبطة بأمر الخلق والإيجاد والموت والبعث التي نمر بها نحن بنوا الإنسان بجميع مراحلها!!.. ويا سبحان الله!!.. فإن القادر على تحويل النطفة إلى جنين هو الذي قدر على تحويل الحبة إلى نبات!!.. ألست معي؟!!..

وما عليك أخي القارئ إلاَّ أن تتتبع معي ما توصلت إليه عبر البحث في هذا المجال!!.. فمسألة الزرع تبدأ بإلقاء الحبة حرثًا في طين الأرض فتتعطن حتى تصير شيئا لا فائدة منه بعد تعطنه، ولو توقف أمرها عند هذه المرحلة فحسب لكانت الخسارة الفادحة الواقعة بكل تأكيد؛ حيث إننا قد أخذنا الحبة الصالحة من صالح ما نملك وأجوده (التقاوي)؛ وإذ بها تتخمر في طين الأرض وتتعطن معلنة بذلك تمام فسادها وخسارتها!!.. (تمامًا كما يحدث في حالة النطفة التي تتخمر بدورها داخل الرحم ويتوقف تطورها عند هذه المرحلة، ولا يكتمل نموها فتسقط دمًا فاسدًا لا خير فيه ولا فائدة منه ترُجى!!..)؛ وإذ بالخالق ﷻ - وهو الرازق الكريم - يبُثُّ الحياة والنماء في الحبة المتعطنة الفاسدة بقدرته حتى تخضر وتنمو ويمتد عودها ويترعرع ثم تنبتُ - بإذن ربها وبقدرته - على هذا العود العديد من السنبلات المتراكمات التي قد تحوي السنبلة الواحدة منها المائة حبة من جنس الحبة التي حُرثتْ أول الأمر

وكانت أصل نبتها وأساس إيجادها؛ فيكون الثراء والغنى وحلول الرخاء والبركة.. والله ﷻ القادرُ على ما أنبت وأخرج هذه البركات من حبة واحدة عفنة وعطنة وفاسدة، هو القادر أيضا وبالتأكيد على أن يسلط على هذا النبت من أسباب الفساد قبل أن يتم نضجه وجفافه على سوقه وهو لم يزل لدِنًـا في خضرته؛ فيصبح بلا مصلحة فيه ولا منفعة تغري باقتنائه أو الاحتفاظ به، ويكون ذلك إعلانًـا بوقوع وتحقق الخسران الفادح المبين!!.. (وهذا الأمر أيضًا يشبه أمر خلقنا ويماثله؛ ولا يحيد عنه قيد أنملة!!.. فالرجل يقذف بالنطفة في مكان حرثه (رحم امرأته) حيث البويضة القابعة داخل الرحم حيث يخترق الحيوان المنوي جدارها وتتعامل معه وبه حتى تتخمر، ولو توقف الأمر عند هذا الحد لأى سبب من الأسباب لحاضت المرأة وسقط ما قد كان تم تكَوُّنـًا داخل الرحم نتيجة ما كان من تزاوج بين المنيّ والبويضة؛ ولا ينتفع به!!.. (وهذا ما نطلق عليه اسم " السقط ").. وأما إن سبقت مشيئة الله ﷻ لهذه النطفة بالبقاء أكملت التطور في مراحل خلقها؛ ودبَّت فيها الحياة والنماء وأكملت أطوارها داخل الرحم حتى تخرج إلى الدنيا بشرًا سويًّا كاملاً)!!..

وهنا تخاطب الآيات منكري البعث بعد الموت في حدة واستنكار؛ مُقرِّعَة أسماعهم، وناهرة لأفكارهم ومعتقداتهم، ومستنفرة لعقولهم ونهاهم في تساؤل توبيخي لهم، منبهة إياهم أتم تنبيه وأشمله قائلة لهم: أليس الله ﷻ هو الذي أنبت لكم هذا الزرع وأخرجه بعد أن تولاه بحفظه وعنايته عبر مراحل نموه من حبة جافة صلبة إلى حبة فاسدة متعطنة، ثم يبث فيها الحياة نماءً واخضرارًا يمتد منه ساقٌ أخضرٌ لدنٌ ذو أوراق ذوات رؤودة ناعمة، ونضارة ظالمة كاسية؛ تتحول إلى سنبلات ناضجة غنية ذوات حبوب متراكمة ومتراكبة؛

أغدق عليها من بركاته ﷻ وكثَّرها لتكون رزقًا وقوتًا يتنعم به المتنعمون ويأكل منه الآكلون؛ مع طلاقة قدرته ﷻ على أن يحيله بعد أن مر بهذه المراحل جميعها وهو على سوقه حطامًا لا خير فيه ولا نفع، ولا صلاح به ولا فلاح؛ قبل تمام نضجه أو حتى بعد نضجه بتسليط عوامل الإفساد عليه!!..{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾} [الزمر: ٢١].

وتقرعنا آيات الرحمن قرعا بسرد ما يتماثل من أطوار خلقنا مع ما يمر به النبات من أطوار على مدى مراحل رحلة إنباته؛ إذ تعرض علينا مقارنة دقيقة بين أطوار خلقنا منذ البدء وحتى نهاية الأطوار بالبعث يوم الحساب وبين ما تمر به الأرض من أطوار الإنبات (من أرض موات قاحلة إلى بعث للحياة فيها بإنبات النبت من بعد موات).. فنلمس عن قرب وثقة ويقين مدى دقة التماثل والتطابق بين ما يمر به كلانا من أطوار فاستمع معي وأنصت لما تقول الآيات يرحمك الله.{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا (هذا ما يخص الإنسان) وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (هذا ما يخص

النبات) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ (هذا مشترك بين الإنسان والنبات) وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾} [الحج: ٦ - ٧].

وهكذا تتبين لنا قدرة الله ﷻ على تحويل أي شيء من خلقه إلى ما يشاء من حال.. ولا معقب لحكمه.. فإذا ما شاء أن يهلك الحرث أو الزرع بعد إنباته وقبل حصاده إذ ا لتحول حال الناس ساعتئذ من بعد بهجة وفرحة إلى حزن وفجيعة على ما وقع بهم من خسارة وبما أصاب زروعهم من فساد وحطام ودمار، ولما ضاع عليهم وفقدوه من صالح ما بذلوا حرثًا في الأرض من حب بذروه رجاء الزرع والإنبات فإذ بهم يفاجؤون به هباءً منثورًا كذر الرياح!!.. (لِما كان قد بدى عليه لأعينهم من مظاهر البركة وبشائر النماء)!!..

فإن كان هذا ما يشاهده الناس عيانا ويعايشونه حقًّا؛ وهو يماثل ما عليه حالهم من مراحل الخلق والموت والبعث طورًا بطور، ومرحلة بمرحلة.. فكيف لهم إنكار البعث بعد الموت ليوم الحساب؛ وها هو يجدوه عرضًا بيانًا فيما يحرثون؟!!.. فسبحان الله العظيم رب العالمين!!.

وهناك لطيفة تحضرني في مجال التجانس المتماثل، والتشابه المتآخي بين خلق الإنسان الذي هو نبت الأرض بلا شك وبين خلق نبات الأرض من زروع وأشجار؛ حيث إن قوام خلق وإيجاد كلا الجنسين مرتبط بخلق الأرض وما أودع الله فيها من بركات، وما أثراها به من عناصر التكوين والإبداع التي أفصحت عنها معامل التحاليل والأبحاث في عصورنا المتأخرة حيث وُجد أن عناصر تكوين جسم الإنسان هي نفسها ما تحتويه الأرض من عناصر، وهي

نفسها العناصر التي يتغذى عليها النبات من زروع وأشجار؛ وكلها لا تتعدى أن تكون جميعها عناصر غذاء الإنسان التي تتكون منها لبنة بناء الأجسام لبني البشر؛ ولا تقوم حياته واستمراريته إلاّ بها عبر ما يتناوله الإنسان من طعام وغذاء(حبوب كانت أو بقول أو فواكه، أو حتى اللحوم والألبان " التي هي من نتاج الأنعام التي تتغذى بدورها على ما تنتجه الأرض لها من غذاء ") وماء!!.. وسبحان القائل{**وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾**} [نوح: ١٧ - ١٨]..

هذه الخاطرة تقول بأن بني الإنسان خلقهم الله على مختلف الألوان بما يماثل ألوان تربة الأرض؛ وهذا ما تقره الآية (٢٢ من سورة الروم) { وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾} [الروم: ٢٢].. وكما توضح لنا هذا الأمر آيات سورة فاطر بشيء من التفصيل والربط بين خلق الإنسان والأرض التي هو من نبتها، وعلاقة ذلك بما تنبته من زروع وأشجار على تنوع ثمارها فتقول{أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾} [فاطر: ٢٧] (أليست ألوان البشر تتراوح بين هذه الألوان الرئيسة وما يشتق منها مزجًا أو فصلاً على الإطلاق)، وكذلك ألوان الثمار والأنعام؟؟!!..) وهذا ما أردفته الآية التالية مباشرة بقولها{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾} [فاطر: ٢٨]..

وتسوق لنا سورة الأنعام هذا الأمر بشيء من التفصيل بقولها {وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ

وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ } [الأنعام: ١٤١].. فهل تخرج ألوان هذه الثمار التي ذكرتها الآية عن الأصول الثلاثة السابق ذكرها في آيات سورة فاطر المذكوره أعلاه؟!.. كما تضيف لنا سورة الرعد تفصيلا مضافا إلى ما سبق

ذكره

فتقول:{ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل: ١٠ - ١١].

* * *

تأملات في منظور الآيات

طهِّرالقلـــبَ بالإيمـــان شـــكْرَانا ::: وَاصْغ للعَقل وَاسْمعْ مِنْهُ بُرْهانــا
في الوُجُود آياتُ المَــوْلى تَهْـديكَ ::: في خـــشُوع يُحيــلُ الكُفرَإيمَانــا
في السَّماء بُرُوجٌ جَــلَّ مُبْـدعُها ::: نُظِّمَتْ.. تَجْري في الأفلاك ميزانا
والسَّما زُينــتْ بــالأنجُم الزُّهْــر ::: ترْجُمُ العَاتي.. إنْ يَطلبْهــا قَرْبَانــا
انظر المُزْنَ مَحْمُولٌ بهــا العَــذْبُ ::: يُخرِ جُ النبتَ أشْــكالا وَألوانــا
وَهْوَ ريٌّ لكُلِّ الكَائنــات يُحْــ ::: يــي دَوابًــا، وأنعامــا وإنــسانا
أنظراللحْمَ بــضًّا يُــشتَهَى أُكُــلا ::: غُذِّ ىَ منْ أُجَــاج المــاءِ أَزْمانــا
والسُّفُنْ.. فوقَ سَطح الماء تَعْلُــوهُ ::: قدْ طفتَ تجْري.. أحْمالا وَبُنْيانــا
تمْخرُالمــاءَ.. تغــدُو في مَبانيهــا ::: كَالجبال شُمُوخًا.. تَحْوي أرْكَانــا
انْظرالأرْضَ جَلَّ الباري مُنْــشيها ::: مُهِّــدَتْ للحَيــاة الــدُّنيا إتقانــا
في الفلاة ترَى الأعْــلامَ شــامخة ::: فيها الثراءُ.. حَواهَــا اللهُ أكْنانــا
فيها الرُّخَامُ بكُلِّ اللــوْن تــشْهَدُهُ ::: منهُ تُبْنىَ قصُورٌ.. تــأوي سُــكَّانا
انظرالخَيْــرَ في الكُثبــان مُكْتَنَــزًا ::: أَخرَجَتهُ عقــولٌ تُجْــري أوْزانــا
انظرالوادي يَحْوي كُلَّ خَيْــرات ::: منْ زُرُوع.. وشَجَر يَعْلو سـيقانا
منْ جَميع الثمار وَالزُّهُــور قــدْ ::: حُمِّلتْ خيْرَهــا حَبًّــا وَبُــسْتانا
هـــذا مُـــرٌّ، وَذاكَ لاذعٌ.. والآ ::: خرُ لذ يذ المَــذاق طعْمُــه بانــا
هذا صُــلبٌ، وَذاكَ لــيِّنٌ.. والآ ::: خرُ لماء فرَات بــاتَ خزَّانــا[1]
والجَميــعُ بمــاء واحــد يُــسْقى ::: والجَمَيعُ بنفس الأرض قــدْ بانــا
هلْ جَرَى كُلُّ هذًا في مُــصادفة؟! ::: ا عْمل الفكْرَ وَالإبــصَارَ إمْعانــا
تعْلمُ السِّرَّ في الإ نبــات مُعْجــزَةً ::: مَنّهــا اللهُ مَكْرُمَــة وَإحْــسانا
فاذ كُر اللهَ وَاحْمَــدْهُ.. لأ نعُمْــه ::: وابْذل الشكْرَ إخلاصًــا وَعرْفانــا

* * *

(1) - مثل الخيار والبطيخ وما شابههما.

الفصل الثالث

وهل في الماء من أسـرار وإعجـاز ؟!!

الفصل الثالث

وهل في الماء من أسرار وإعجاز؟!!

الماء هو أساس الخلق وأساس استمرار حياة كل الكائنات في هذه الدنيا!!.. حتى في الآخرة نجده مصدر متعة أهل الجنة وسكانها.. كما نجده وسيلة الإغراء لأهل النار إذ يطلبونه، ويقبلون عليه في إلحاح من الطلب؛ فيتلهفون عليه ليكون سببا في استمرار عذابهم وشقائهم!!..

ولبيان ذلك.. أستعرض معك بعضًا من الأدلة من كتاب الله ﷻ على سبيل المثال وليس الحصر.. فما أكثر ورودها إبرازًا لأهمية هذا العنصر الخطير الجانب، العظيم الشأن، الممتد الأثر والتأثير في الدنيا والآخرة على السواء!!..

في الحياة الدنيا نجد الماء العنصر الأساسي في النشأة الأولى:

حيث يخبرنا الله ﷻ بقوله:

-{ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ **وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ** لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [هود: ٧]، ثم يتحفنا ﷻ بهذه الآية الجامعة إفحامًا لمن يساوره بعض من شك، أو تراوده بادرة من تساؤل، إذ يؤكد لنا بقوله ﷻ :{**وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ**} [الأنبياء: ٣٠].

وإليك بعض التفاصيل لهذا المجمل:

-{**وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ** فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ } [النور: ٤٥].

وفي خلق الإنسان بالتحديد نورد هذه الآيات:

-{وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ (آدم عليه السلام * الطين = ماء + تراب) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾} [السجدة: ٨].

-{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾} [المرسلات: ٢٠] (نسل آدم عليه السلام).

-{فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾} [الطارق: ٥ - ٦].

-{وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا} [الفرقان: ٥٤].

ثم نأتي إلى الأرض وما فيها فنورد بعض الآيات:

-{وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ} [النحل: ٦٥].

-{وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ} [البقرة: ٢٢].

-{وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ} [الأنعام: ٩٩].

-{وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ} [الرعد: ٤].

-{هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ} [النحل: ١٠ - ١١].

وفي الآخرة نجد الماء مصدر متعة لأهل الجنة:

-{وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ} [البقرة: ٢٥].

-{لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ} [آل عمران: ١٥].

-{إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٤ - ٥٥].

-{مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ} [محمد: ١٥].

والآيات في هذا الشأن كُثْـرٌ ويمكن الرجوع إليها في كتاب الله العزيز لمن أراد الاستزادة.

وفي الآخرة أيضـًا نجد الماء مصدر عذاب لأهل النار:

ونورد في هذا الشأن بعض الصور:

فهذه صورة تبين لنا مدى تحسرهم على أنفسهم وهم يشتهون الماء متمنين على أهل الجنة إمدادهم ببعض منه:

-{ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾} [الأعراف: ٥٠].

وهذه صورة أخرى تبين لنا نوعية الماء الذي يشربونه اضطرارًا في نار جهنم بعد أن بلغ بهم الظمأ مبلغه:{ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ} [إبراهيم: ١٥ - ١٧].

وهاهي صورة ثالثة تبين نوعية الماء الذي يغاثون به إذ هم يستغيثون:

-{وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ } [الكهف: ٢٩].

وهذا ما توضح نوعيته، وكيفية تأثيره عليهم عند شربهم منه الآية الخمس عشرة من سورة محمد ﷺ فتقول:{وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ} [محمد: ١٥].

وبذلك نكون بفضل الله ﷻ وتوفيقه قد تمكنا من توضيح أهمية الماء وضرورته؛ وهنا يستوجب علينا الحال أن نجيب على عنوان هذا الفصل، وهو: وهل في الماء من أسرار وإعجاز؟!!..

نقول وبالله التوفيق.. إن هذا الماء العذب الذي هو بين أيدينا وفي متناولها.. ونحصل عليه وقت ما نشاء في سهولة ويسر فنشرب منه ونروي ظمأنا، ونسقي منه أنعامنا، ونروي به مزروعاتنا.. لم يكن سهل الإنتاج؛ وإنما هو نتاج عملية إنتاجية خطيرة ومثيرة على الإطلاق إذ تشترك في إنتاجه وتصنيعه - متعاضدة - عدة عناصر قوية وشديدة الخطورة!!.. وسنورد مستعرضين معك تلك العناصر العاملة والمتمثلة في هذا المصنع الكوني المعجز والعجيب الذي يعمل في مثابرة وجدٍّ بأمر ربه منذ أن خلقه الله ﷻ وحدد له مساره ومداره، وعَيَّن له عمله واختصاصه؛ تسخيرًا لخدمة بني الإنسان إلى يوم الدين!!.. سنستعرض معًا تلك العناصر الفاعلة في إنتاج الماء العذب؛ موضحين الدور الموكل به كل عنصر من هذه العناصر، وهي على الترتيب:

أ – الأرض يابسها وماؤها:

وتكمن أهمية الماء في الأرض على اتساع مسطحاته رغم مرارته وشدة ملوحته إلاَّ أنه المصدر الأصلي للماء العذب الذي نشربه فنذهب به ظمأنا، ونطهو به طعامنا، ونسقي به أنعامنا، وبه تنبت الأرض شتى نباتها من مزروعات وأشجار!!.. إذ أن البحار والمحيطات على اتساع مساحاتها وبُعد قيعانها وعمقها؛ تُعَدُّ المخزن الدائم والآمن - حفظًا وتعقيمًا - للماء اللازم لحياة جميع الكائنات والمخلوقات على وجه البسيطة منذ خلق الله الأرض وإلى يوم القيامة.. ولذلك فهي تمثل أربعة أخماس مساحة الأرض في حين تمثل اليابسة التي نسكنها ونروح عليها ونجيء الخمس فقط من تلك المساحة.. وهنا يجب التنويه إلى أن الماء من

مكونات الأرض وليس طارئًا عليها؛ إذ هو من عناصر تكوينها التي أودعها الله ﷻ فيها {وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾} [النازعات: ٣٠ - ٣١].

ب - الشمس ودورها في تصنيع الماء:

والشمس تمثل العامل الثاني والمهم في المصنع الكوني لإنتاج الماء العذب!!.. إذ تسلط حرارتها طوال العام على أسطح البحار والمحيطات مما يؤدي إلى تبخر السطح الأعلى الذي تقع عليه أشعة الشمس الحارقة مباشرة؛ فتخف كثافته بفعل تسخينه بهذه الأشعة؛ وينسلخ في هدوء عن أصله المالح المر ذي الكثافة الثقيلة؛ متصاعدًا إلى طبقات الجو العليا؛ تاركًا أصله هذا العميق الذي ما زال محتفظًا بكثافته الثقيلة بما يحويه من ملح ثقيل مُرَكَّزٍ أجاج!!.. (فسبحان من خلق وهدى)!!..

جـ - السحاب ودوره في تصنيع الماء:

يتصاعد البخار يوميا.. يبدأ خفيفًا ثم يتكاثر حتى يتراكم بعضه فوق بعض؛ فيصير في هيئته كهيئة جبال الأرض اليابسة وبألوانها.. ولقد يشاهد تلك المشاهد المُزنيَّة الجبلية الشَّبَهِ كل من واتته الظروف بركوب الجو عبر الطائرات وخاصة في فصلي الخريف والشتاء!!.. وسبحان الله الذي خلق كل شيء بتقدير وميزان!!..

د - الرياح ودورها في تصنيع الماء:

يبدو السحاب في بدايته في كبد السماء تحت ضوء الشمس أبيض اللون حيث حداثة تكوينه وخفة كثافته المتصاعدة.. ثم يتزايد في تكاثره حتى يصير رماديَّ اللون.. ثم يتكاثف ويتراكم مصبوغا باللون الأزرق الداكن.. ثم تزيد كثافته فيميل بلونه إلى

السواد.. وبذلك تتكون السحب في جو السماء.. وما يتقلب السحاب هذا بين هذه الأطوار من فعل ذاتيٍّ فيه.. وإنما يُصَيَّرُ السحابُ إلى هذه المراحل من التراكمات والتكاثفات المتطورة التي تطرأ عليه بفعل الرياح التي تسوقه من هنا وهناك بأمر ربها فتجمعه في طبقات الجو العليا طبقات فوق طبقات بأمر ربها الذي أوكل إليها هذا العمل، وأمرها بالقيام بهذه المهمة في مرحلة من مراحل تصنيع الماء العذب!!.. (فسبحان من أخضع كل شيء لقدرته.. وسخر كل شيء بحكمته).. سبحان الله!!..

بعد أن تتراكم السحب حسب المقدر لها من الخالق ﷻ يأمر الرياح؛ فتتوحد متعاضدة لتصير ريحًا واحدًا موجها في اتجاه واحد لتحقيق هدف واحد وهو أن تسوق هذه السحب المتراكمة حيث قدر الله ﷻ لها أن تُنْزِلَ ما حُمِّلت به من ماء عذب مستخرج من الماء المالح المر المختزن في البحار والمحيطات بأمر الله.. وتسوقه الريح حيث شاء الله وقدر!!.. فسبحان الله!!..

هـ - تهيئة المُنـاخ ودوره في صناعة الماء:

بعد أن تسوق الريحُ السحابَ إلى المكان المقدر له والمحدد في علم الله ﷻ يأمر الله ﷻ الريح بالتوقف فتسكن.. وهنا تحجب الطبقات العليا من السحاب أشعة الشمس عن الطبقات الدنيا منه فتنتج عن ذلك درجة من البرودة بهذه الطبقة الدنيا التي تواجه سطح الأرض وهي الأدنى منها والأقرب إليها بالطبع؛ فيتكثف هذا البخار الكثيف المتراكم ويتساقط مُقَطَّرًا على البقعة المحددة لسقوطه من الأرض..

ينزل المطر فيملأ مجاري الأنهار، وينزل على نبت الأرض

ومزروعاتها فيسقيها ويرويها.. وما يفيض منه يتسرب عبر مسام الأرض إلى جوفها؛ فتنشأ بذلك الآبار، وتمتليء بالمياه ليُخرج منها الإنسان طوال العام من الماء العذب حسب حاجته..

فـ " لِلـهِ الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه متلازمَيْن أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى يوم الدين وإلى ما بعد يوم الدين مالا يعلم علمه إلاَّ الله ربُّ العالمين.. وإن كان هذا مِنَّا له سبحانه؛ فبعونه وتوفيقه وهداه.. ولو تحقق هذا منا لأصبحنا أيضًا عن حق شكره وحمده عاجزين.. سبحانه ما قدرناه حق قدره؛ إذ لا يعلم قدر ذاته ﷻ إلاَّ هو!!..

وإليك ما يؤيد ذلك من كتاب الله رب العالمين:

-﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ **وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]. وهي آية جامعة تدعونا إلى النظر وإعمال العقل فكرًا وتدبرًا في كل ما ذكرت لنا من آيات يغفل عنها الكثيرون وهم لها يعايشون وإيَّاها يرقبون..

أما عن دورة إنشاء السحاب فها هي الآية تلفتنا لفتة صدق داعية إيانا إلى التعقل والتدبر.. والتوقف مليًّا أمام هذه الظاهرة التي تعودنا عليها وألفناها.. فتطلب منا البحث والتفكر في كيفية بدء إنشاء هذا السحاب، وتتبع أطواره حتى يصير ثقالاً؛ إذ قد حان وقت تقطره ساعة يبدو ثقله جليًّا واضحًا للعيان؛ وقد علمنا فيما سبق أن عملية الإنشاء هذه تبدأ بعملية البخر التي تتم بتسليط أشعة الشمس على

سطح البحار والمحيطات.. فتقول الآية الكريمة:

-{هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾} [الرعد: ١٢].

-{ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾} [الروم: ٤٨ - ٥٠].

إذ إنه بعد إنشاء السحاب في أماكن متعددة ومتباعدة تعلو الأماكن التي تم البخر منها من البحار والمحيطات؛ تبدأ مهمة الرياح في تجميعه ليكون متراكما بعضه فوق بعض بعد أن كان مبسوطًا متفرِّقًا؛ تمهيدًا لسوقه إلى حيث شاء الله ﷻ له أن يتقطر مطرًا، وهذه الآية مؤيدة بأختها التي تقول:

-{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾} [النور: ٤٣].

والسحاب بعد أن يثقل بما حُمِّلَ من ماء الخير والبركات يأتي دور الرياح لنقله إلى حيث يستظل به محتاجوه من الناس، فيستبشرون به إلى حين تسكن الريح تمامًا وتبدأ مرحلة التَّقَطُّر والإنزال:

-{وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾} [الأعراف: ٥٧].

ولما كانت الآية السابقة تبين لنا بكل وضوح (في ختامها) أن إحياء الناس بعد الموت لا يختلف عن عملية إحياء الأرض الموات بإنزال الماء عليها من السماء، فها هي الآية التاسعة من سورة فاطر تذكرنا وتنبهنا صراحة وبلا مواربة إلى يوم النشور بالبعث من القبور بعد الموت؛ في صيغة زجر وتحذير فتقول:

-{ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩} [فاطر: ٩].

وذكر النشور هنا متعلقًا بالإحياء.. فالأرض تحيا بالماء.. والأنعام تحيا بالماء.. وجميع الأحياء من طير وزواحف وحيوانات وحشرات، حتى البكتيريا الغير مرئية لضآلة جَرمها تحيا بالماء.. ونبت الأرض (مهما كان نوعه أو كنهه) يحيا بالماء فكذلك الإنسان يحيا بالماء.. ويعاد إحياؤه بالبعث أيضًا بالماء.. إذ يخبرنا الصادق المصدوق ﷺ بأن الإنسان بعد موته يبلى جميعه إلاَّ عَجْبُ الذ نَب (ما يقال عنه العصعوص) وهو آخر فقرة في العمود الفقري وهي أصغر الفقرات على الإطلاق.. فلا تأكلها الأرض.. فإذا حان وقت البعث يمطر الله السماء فتنبت منه هذه (العَجْبَ) ثم يعود كل إنسان إلى صورته التي كان قد قبض ومات عليها.. فسبحان القائل ﷻ بعد ذكر إحياء الأرض بالماء{كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ} [فاطر: ٩]..

وهناك لفتة عظيمة تعج بالإعجاز في مسألة الماء العذب هذا الذي تم تقطيره في معمل الكون الواسع (تبخيرًا من ماء البحار والمحيطات ذي الملح الأجاج).. وهي أن أغلب هذا الماء وأعظمه يُصَبُّ مِنْ مَصبَّات الأمطار في الأعالي من الجبال والمرتفعات ساقطًا فيما يسمى بالشلالات ويجري مسرعًا حيث مجاري الأنهار

آخذا طريقه في انحدار ملحوظ حيث الوديان الهابطة في الارتفاع حتى يصل إلى أطرافها التي تودي بفائضه إلى البحار الملحة والمحيطات التي سبق أن سُلِخَ منها بعوامل البخر الناتجة عن أشعة الشمس وحرارتها.. العجيب في هذا الأمر أن هذا الماء العذب الذي يشق طريقه عائدا إلى البحار الملحة لا يختلط أبدا بماء البحر المالح الذي هو أصله، ومنه أ خِذ!!.. بل يأخذ مساره شاقا مجراه داخل هذا الماء الملح دون اختلاط أو مزج بينهما.. إذ يظل العذب عذبًا على طبيعته في مجراه البحري المالح المر دون أن يفقد صيرورته التي صُيِّر إليها من العذوبة!!.. ويظل المالح ملحًا على حالته التي هو عليها، فلا يختلط هذا بذاك.. ولا يذوب القليل في الكثير أبدًا!!.. وسبحان الله مقدر الأقدار!!.. ويصور لنا القرآن هذا الأمر العجيب المعجز في سورة الفرقان، مُلْفِتًا إيَّانا إلى هذه الحقيقة الفَجَّة، فيقول مخبرًا عن المولى عز وجل:

-{وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾} [الفرقان: ٥٣]... فهل بعد هذا الإعجاز من إعجاز؟!

وفي سورة الرحمن يقول مقرًّا بهذه الحقيقة:

-{مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾} [الرحمن: ١٩ - ٢٠]
أي أنه سبحانه وتعالى أرسل الماء العذب خلطًا في الماء المالح مع احتفاظ كل منهما بخاصيته (هذا بعذوبته وذاك بملحيته) وكأن بينهما حاجزًا في البحر من أمره ﷻ يحول بينهما وبين مزج كلاهما بالآخر أو خلطهما ببعضهما البعض.. وسبحان الذي يقول للشيء كن فيكون!!..

فاعتبروا يا أولي الأبصار؛ ولا تكونوا كالذين وصفهم القرآن في سورة الكهف بقوله الفصل:{ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾} [الكهف: ١٠١].. وتفكروا يا أولي النهى والعقول؛ ولا تكونوا كالذين قال فيهم القرآن:{أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ} [محمد: ٢٤].

اعتبروا واتعظوا قبل ألا يكون هناك داع للاعتبار.. أو مرشد للوعظ!!..

* * *

أخي القارئ:

من العرض السابق يتبين لنا أن الآيات الكريمة في هذا المشهد أفحمت كل مكذب معاند منكر بالبعث بعد الموت والنشور للحساب، منبهة الجميع إلى قدرة الله ﷻ المطلقة وإعجازه البين الجلي في خلق بني الإنسان ومنهم هؤلاء المنكرين أنفسهم:{نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾} [الواقعة: ٥٧ - ٥٩].. بل أنتم يا الله سبحانك.. وأنا على ذلك في الشاهدين..

ولما كانت سنته ﷻ تتجلى فيما شاء للخلق والإيجاد لكل الكائنات من مراحل وأطوار بيِّنة وواضحة تتقلب انتقالاً بين إحياء وإصلاح طورًا، وبين إماتة وإفساد طورًا آخر في مسيرة الخلق، منذ بدء البداءة لنقطة الإنشاء وانتهاءً بكمال البناء وتمامه في أحسن صورته؛ فيسفر ذلك عن تتويج لمراحل الخلق عن مخلوق كامل الحُسن والقوام والبناء (إنسًا كان أو حيوانًا أو نبت إنبات).. إجلاءً لطلاقة قدرته ﷻ وتمام علمه وكمال إحاطته (فتبارك الله أحسن الخالقين).. ولما كان تبيان ذلك في بني الإنسان يخفي عليهم، ويصعب إطلاعهم عليه؛ لأنهم يتقلبون في سبيل تخليقهم وإيجادهم بين هذه الأطوار في

حال من الباطن الغير مرئي (داخل رحم الأم) فلا يستطيعون تتبع ومشاهدة ذلك التطور والتقلب بين الإفساد تعطنا تارة، وبين الإصلاح إحياءً وإنماءً تارة أخرى.. فلا يرون المخلوق الجديد إلاَّ بعد أن تضع الأم حملها مفصحًا عن خروج طفل كامل سوي من بطن أمه إلى هذا العالم المشاهَد في غير خفاء ولا غموض.. ولما كان ما يجري عليهم في الباطن والخفاء يماثل ما يجري على ما يمكنهم معاينته وتتبعه في زراعاتهم التي يكمن فيها سر وأسباب حياتهم من قوت (حبًّا مزروعًا كان أو ثمارًا).. والتي هم يتتبعونها طورًا بعد طورٍ دون وازع من فكر أو تدبر، وإنما يتتبعونها تعهدًا بما يعتقدون أن فيه صلاح إنباتها ونمائها (إذ هي تمثل أقواتهم وعليها قوامهم).. لذا فكان ضرب المثل لخلقهم بما يمكن لهم مشاهدته في تطور زراعاتهم؛ لعلهم يتفكرون ويتدبرون في خلق أنفسهم، ويستشعرون ذلك في مراحل تكوينهم وخلقهم!!.. وهم على هذا الحال من التأمل والتفكر فيما سيق إليهم من الآيات المحيطة بهم اعتبارًا ومعايشة مما ارتبطت به حياتهم من آيات الأرض التي هي بين أيديهم؛ من أياديهم مُطالة، ومن اهتماماتهم قريبة، ومن أنظارهم وأبصارهم مرئية ومرصودة.. إذ بالآيات تأخذ بلبٍّ عقولهم، ولُباب أفكارهم، وبؤرة انتباههم، وأحداق عيونهم في لفتة قصِيَّة جاذبة لأعناقهم نحو ما يعلوهم من سماء؛ وما يظلهم من سحاب، عارضة عليهم إعجازًا ما بعده إعجاز في عنصر هو الأهم على الإطلاق في حياتهم.. إذ هو السبب الأول في إنشاء وجودهم ونشأتهم.. والسبب الأول في إيجاد أقواتهم.. والسبب الأول في حياة أنعامهم وحيواناتهم!!..

إنه العنصر الأهم في خلقهم كما هو العنصر الأهم في استمرارية

حياتهم وبقائهم.. عنصر لا يمكنهم الصبر على فقده أو افتقاده كما اسْتِطاعَتِهم الصبر والمصابرة علي افتقاد نعمة الطعام وأسبابه.. إنه عنصر قوامهم، وقوام زراعاتهم التي لا سبيل لهم إليها من دونه.. إنه ذو خطر عظيم لإقامة وأدهم، واستمرارية حياتهم.. مِن غيره لا أمل في حياة لهم ترجى.. ألا إنه عنصر الحياة الأول.. إنه الماء.. وسبحان القائل:{وجعلنا من الماء كل شيء حي}.. والقائل:{والله خلق كل دابة من ماء}.. إنه العنصر الذي قال عنه الخالق ﷻ:{لنحيي به بلدة ميتًا ونُسقيَهُ مما خلقنا أنعامًا وأناسيَّ كثيرا}..

وهنا يذكرنا القرآن العظيم في غير سورة من سوره الكريمة آخذا بأيدينا إلى بعض آياته العظيمة التي أشرنا إليها في صدر هذا الفصل والتي تلفتنا انتباها إلى بعض آلاء الله ﷻ معلمة إيانا كيف يكون التدبر والتفكر في أسرار آياته بالوقوف أمام الأسباب العظيمة المباشرة والظاهرة لنا على مرأى العين والتي تمثل الحلقة قبل الأخيرة في مسيرة مدنا بالماء!!.. هذه الآيات التي أخبرتنا بالمهمة التي نيطت بالرياح من تجميع السحب الخفاف المبسوط تفرقًا وانتشارًا.. لتجعل منه تراكمات كثيفة ثقيلة.. ثم سَوْق السحاب المتراكم إلى حيث قدر لها المولى عز وجل أن تنقله.. ثم يأمرها بالتوقف عن تسييره آمرًا السحاب أن يتقطر ماءً رويدًا رويدًا وليس دفعة واحدة ليكون على الناس رحمة؛ إنباتًا لزراعاتهم التي إيَّاها يحرثون، وريًّا لهم إذهابًا لظمئهم إذ إليه يظمؤون، ورتعًا لأنعامهم إذ بها يتنعمون.. فهو أصل كل المخلوقات؛ كما هو سبب استمرارية الحياة لكل المخلوقات؛ مهما كان كنهها أو حجمها على هذه الأرض.. لعلنا نثوب إلى عقولنا ورشدنا فنعتبر ونتعظ.. ونتوجه بالشكر لمن هو المستوجب للشكر عن حق ويقين.. ونسجد له

حامدين.. ونحفد إليه عابدين!!.. إنه الله رب العالمين!!..

فالماء هو السر الأعظم لحياة كل شيء وإنبات كل شيء!!.. فلولا الماء لما كان الغذاء نفسه كما ذكرنا.. إذ عليه يُعَوَّلُ إنبات النبات.. وسقيا الحيوان.. فهو كما يقول علماء الإحياء: (أكسير الحياة لكل الكائنات!!..).

ولما كانت أهمية الماء تبلغ هذا المبلغ الخطير فلا غرو ألاّ يرتحل الناس من مكان إلى آخر إلاّ لطلبه!!.. ولا غرو أن يكون سببًا رئيسًا لقتالهم وحروبهم إذ يقتتلون عليه!!.. ولا غرو في تخاصمهم طمعا في استحواذه!!.. لتكون لهم اليد الطولا والكلمة العليا إن تملكوه وفيه تحكموا.. فهم من أجل هذه الأسباب النابعة من هذه الأهمية المطلقة للماء يتعادون ويتحاربون!!.. إنه سر الحياة.. ولا حياة لهم وهم إياه يفتقدون أو بفقدانه يتهددون!!..

والإنسان دائم البحث عن الماء.. يحفر الناس من أجل الحصول عليه الآبار والعيون.. إذ يستخرجون مما سبق خزنه في باطن الأرض تسربًا من الأمطار عبر تلك الآبار عذبًا فراتًا مستثاغ الطعم في سهولة ويسر.. يشربون منه ويتنعمون، ويسقون منه الدواب والأنعام، ويروون به النبت؛ فتستقر به لهم الحياة، ويطيب لهم المقام؛ فيُنشئون حوله المدائن والأوطان، وفي رحابه يشيدون الديار حيث يقيمون.. فيحيون بجواره في رغد العيش، وأمن الأمان.. والأمر إذ ذاك، فكان لا بد من لفتهم إليه عقلاً ووجدانًا؛ لما فيه من عظيم الإعجاز، وما يتمثل فيه من بديع الآيات..

توقِفُنا الآياتُ أمام سر وإعجاز تكوين هذا الماء الذي يأتينا - من غير حول منا ولا قوة - سائغًا شرابه مُذهبًا للظمأ، نتخذه ريًّا

لنا، ونسقي منه أنعامنا وزروعنا.. نعجب لشأن هذا الماء كل العجب إذ نعلم أنه في أصل منشأه وبداية رحلته قبل أن يأتينا على هذه الصورة العذبة المشهية؛ إنما اجتزيء سلخًا من ماء البحار والمحيطات المر الأجاج، اللاذع الملوحة، الممجوج النكهة، فهو في أصله بالغ الملوحة والمرارة، لا يستطيع اللسان تذوقه، فضلاً عن تعذر ذلك، بل واستحالة تقبُّل أي كائن كان لتمرير قطرات منه عبر المريء إلى جوفه طلبًا لريٍّ أو إذهابًا لظمأ.. هذا الماء المالح الأجاج تتولى الشمس - كما رأينا آنفا، وبأمر ربها ﷻ - عملية تبخيره عبر أشعتها وحرارتها من على سطح البحار والمحيطات الواسعة؛ إذ بفعل هذه الحرارة الموجهة إليها والمسلطة عليها؛ وعلى مدار اليوم يتم فصل السطح العلوي الخفيف من هذا المزيج المالح المر في البحار؛ حيث يصير بخارًا خفيفًا، ينسلخ خِفًّا عن مسطحات البحار والمحيطات صاعدًا إلى الأجواء العليا عذبًا نقيًّا فراتًا وقد فارق الملوحة والمرارة وموطنها ومصدرها إلى الأبد، وهي التي تمثل العنصر الثقيل الغير قابل للبخر لثِقل كثافته الناتجة عن الملوحة.. وتتجمع الأبخرة في جو السماء متفرقات ومبعثرات هنا وهناك حسب أماكن تبخرها وتصاعدها.. ثم يتم تجميعها بفعل الرياح التي تسوقه من هنا وهناك حتي تتراكم كُتلُهُ بعضًا فوق بعض مُكوِّنة المُزن الثقال حسب مشيئة المولى ﷻ.. ثم تتقوى الرياح ببعضها في اتجاه واحد دافعة السحاب المتثاقل بما تراكم فيه من أسباب الخير والبركات بأمر الله ﷻ لتسوقه حيث قفار الأرض، وحيث تجمعات الناس؛ إذ إلى عذب مائه هم محتاجون وإليه يتشوفون مترقبين.. حتى إذا ما أصبحت تلك السحب فوق هذه البقاع سكنت الرياح بأَمْرِهِ سبحانه؛ وحَجَبَتْ الطبقاتُ العليا من السحب أشعة الشمس

وحرارتها عن الطبقات الدنيا المواجهة للأرض فبردت بسبب فقدانها لحرارة الشمس؛ ويكون ذلك إيذانا ببدْء عملية التكثيف لهذه الأبخرة المتراكمة؛ فتتقطر مطرًا عذبًا نازلاً في هدوءٍ ورحمةٍ من السماء إلى أهل الأرض محملاً بالخيرات والبركات حيث يقطن القاطنون فلا يَغرقُ - بتنزله الهوينى - كائنٌ.. ولا يُهْدَمُ بهطوله قائمٌ!!..

ينزل المطرُ.. فمنه ما يحتل مجاري الأنهار.. ومنه ما يسقط مباشرة حيث المزروعات.. ومنه ما ينزل في البوادي والقفار فيتسرب إلى جوف الأرض عبر حبات الرمال فيتخذ من عمق باطنها مخزنًا يمتد منه جوفيًّا حيث العيون والآبار؛ ليستخرج الناس منه بعد ذلك بقدر حاجاتهم، ووقت أن يطلبون في سهولة ويسر، فهو في مخزن آمن وحفظٍ أتم، ونقاءٍ وطهرٍ.. لا يناله عبث العابثين..

وصدق الخالق ﷻ:{وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾} [المؤمنون: ١٨ - ١٩].. وهو القائل ﷻ وقوله الحق:{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} [الزمر: ٢١].

تلفت الآيات انتباهنا إلى هذا الإعجاز الصارخ الذي يغفل عنه الكثيرون؛ علنا نعمل الفكر تأملاً وتدبُّرًا، ونمعن النظر اتعاظًا واعتبارًا، ونزكي القلوب إيمانًا وتسليمًا.. فتسألنا في تعجب واستهجان لما نحن فيه من غفلة عن مصدر هذا الماء الذي أصبح في متناول أيدينا عذبًا فراتًا، عليه قوام حياتنا، ولا يكون لنا من غيره سوى الهلاك.. تدعونا إلى تعميق الفكر وتحفيز العقل طلبًا للهداية وتثبيتًا للإيمان.. ونبذ الغي والإغواء، والتزام صراط الله

المستقيم.. في دعوة خالصة إلى التدبر في سر القدرة الإلهية في سؤال معجز للجميع عن هذا الماء قائلة: أأنتم الذين أنزلتم هذا الماء العذب تقطيرًا على هيئة المطر من السحاب؟!!.. أم أن الله ﷻ القادر على كل شيء؛ إذ خلقكم من ماءٍ مهين، وأنبت لكم الزرع الذي منه تُطعمون؛ هو الذي اخترع طريقة تكوين السحاب المحمل بهذا الماء السلسبيل من مُرِّ ماء البحار وأنزله لكم في رقة وهدوء دون هدم لبناء أو إغراق لكائنات في غير تدخل منكم أو ممن هو دونكم من شيء.. وأمدَّكُم به - فضلاً منه ورحمة - متعة ورخاءً، سائغًا عذبًا رواءً؟!!.. وأنه ﷻ رحمة منه لم يشأ أن يأخذ الطاغين بطغيانهم، والجاحدين بجحودهم.. وإلاَّ لترك الماء في مقر تجمعه في البحار والمحيطات شديد الملوحة، ظالم المرارة؛ غير مُساغ شرابًا، غير صالح سقيا أو رواءً.. إذن لهلكوا وهلك الجميع.. فهلاَّ كان منكم الشكر لله ﷻ على جل نعمه وعظيم آلائه وسابغ بركاته وجليل عطاياه وهباته التي أمدَّكم بها فضلاً منه وتكرمًا ورحمة.. إذ أنتم فيها تمرحون، وبها تتنعمون وتتفكهون، وفي رخائها تترفون؟!!..

تدفعنا الآيات دفعًا إلى التفكر والتدبر في قدرة القدير ﷻ على التكوين والإيجاد، والخلق والإنشاء، بثًّا للحياة، ثم طلاقة قدرته على سلب ما وهب من الحياة ومسببات الحياة بالإماتة والإهلاك، ثم تفضله على خلقه بالإحياء والبعث بعد الموت للحساب الذي هو في يومه المقدر عنده لا بد آت ليدخل المصدقين المؤمنين في رحمته، ويدخلهم - خالدين - دار جنته ورضاه.. ويُخَلِّدَ المكذبين في نار عقابه.. لعل من ضل وأنكر يدرك ويفطن إلى المقصود من بيان عظيم الأسرار في هذه الآيات؛ فيذعن إلى ما أمره الله ﷻ به فيؤمن ويأتمر.. وينتهي عمَّا نهاه من التكذيب والكفر والإنكار.. عندئذ ينجو

بنفسه من عذاب يوم الدين مع الناجين.. إنها الرحمة المطلقة من الله الرحمن الرحيم.. فالحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين المنيبين..

* * *

من ظاهر النعم

عجيبٌ أمْرُ دنيانا ::: كأني لستُ واعيها

فتهتُ في مَفاتنِها ::: وحِرْتُ في مَعانيها

بناءٌ شامخٌ دلَّ ::: على الرَّحمن باريها

لهُ في كُلِّ مَرْآة ::: عَظيمُ الآي يُبْديها

فبيْن الكاف والنونٍ ::: تجَلَّى كُلُّ ما فيها

بديعُ الكَوْن أنشاها ::: وزيَّنها وَجَلاَّها

فإن قمتُ لها وصفا ::: فإني لسْتُ مُوفيها

فراشٌ تلكموا الأرضُ ::: مُمَهَّدةٌ لأهليها

مُثبتة بأعلام ::: تعالى اللهُ مُرْسيها

ووديان بها بُسطتْ ::: مروجٌ جَلَّ مُحْييها

وقدْ شقَّتها أنهارٌ ::: بعذب الماء ترويها

وتسْقي كل ظمآن ::: وذي الأنفس فتحييها

وزرعٌ قدْ حوى حَبًّا ::: صنوفًا لست أُحصيها

هيَ للخلق أقواتٌ ::: تعالى اللهُ مُنشيها

وأشجارٌ مُحمَّلةٌ ::: ثمارًا جَلَّ باريها

غذاءٌ هيْ وتفكيةٌ ::: ومالٌ يُثري جانيها

حَباها اللهُ إبْداعًا ::: منَ الألوان أزْهَاها

يُريحُ طيبُها النفسَ ::: تَسُرُّ عَيْنَ رائيها

وَمِنْ أوْراقها ظلٌّ ::: لقاصدها وآتيها

سقاها المولى من وَدْق ::: بعَذب القطر يُحْليها

ومِنْ أزهارها طِيبٌ ::: عَبيرُالورد يُزكيها

وفي الأفـــق تـــرى شمـــسًا ::: تُـــــــــــضيءالدنياوتُحييها
وفـــوق المــــاء في البحــــرِ ::: تـــصُبُّ حَـــرَّ مـــا فيهـــا
فتشـــري المُـــزنَ بـــالبحرِ ::: فتُـــسْقط عَـــذب مـــا فيهـــا
وتنـــــضِجُ لنـــــا الــــزَّرْعَ ::: وللتدْفئَــــــة نرْجُوهـــــــا
وذا البحْــــرُ بـــــه الخيْــــرُ ::: كُنُـــوزًا بـــاتَ يَحْويهـــا
وتلـــــك الـــــسُّفنُ تعْلـــوهُ ::: علـــى الأمـــواج مَجْراهـــا
عَليْـــــه تطفـــــو شـــــامخةً ::: هـــيَ الأعْـــلامُ تـــشْبيها
مُحَمَّلـــــــة بأثقـــــــال ::: ومـــا أنَّـــتْ بمـــا فيهـــا
وإنْ ألقمْتـــــهُ حَـــــصيًا ::: فقـــاعُ البحْـــر يَحْويهـــا
فـــذا إعْجـــازُ خالقنـــا ::: وآيٌ.. وَعْظُنـــا فيهـــا
وذا الليْـــــلُ إذا حَـــــلَّ ::: حـــوى الأرضَ بمـــا فيهـــا
رأيْنـــا البَـــدْرَ يُـــسْعفها ::: يُـــنيرُ عُـــتمَ ليْلاهـــا
أحـــال ليْلـــها نـــورًا ::: فجَلـــيَّ كُـــلَّ أرْجاهـــا
وتلـــكَ الأنجُـــمُ الغـــرُّ ::: تـــدل الـــساري أضـــواها
تعـــالى المَـــولى مُكْرِمُنـــا ::: بجُـــلِّ الـــنعَم مُوليهـــا
فـــلا الـــشكْرُ لـــهُ يَكْفـــي ::: ولا الحَمْـــــدُ يُوافيهـــا
ففـــضلُ الله مـــــدْرارٌ ::: علـــى الـــدنيا وَمافيهـــا
وأهـــلُ الأرْضَ في لهْـــو ::: عَـــن العرْفـــان يُلـــهيها
رجَـــوْتُ الله في صـــمْتٍ ::: لأنْ يَغفِـــرُ لِمَـــنْ فيهـــا

* * *

الفصل الرابع

وهل تتولد النار من حَضِرِ الأشجار؟!!

الفصل الرابع
وهل تتولد النار من خَضِر الأشجار؟!!

إنه لشيءٌ مثيرٌ حقًّا يُقْحِمُ العجب على النفوس عجزًا عن الوعي والاستيعاب، ويُثْري الذهُولَ في العقول تَغَيُّبًا عن السؤال والمقال، ويأخذ بِلَباب الإدراك والأفكار انتشاءً وحيرة قلَّ أن تُطال، ويَطْمُس الأبصار والأنظار سَكْرة لا ينالها أهلُ الرَّاح من كئوس الشراب، ويُخرس الأفهام والحواس جميعها إذ تكاد تكذب هذا الذي عنه تسمع.. ولا تكاد تصدق به إذ تشاهد وتلمس.. إنها تعايش العجب العجاب.. بل تعايش ما قد خرج عن دائرة العجب إلى مالا يمكن وصفه من حال على جميع تقلبات الأوضاع والأحوال.. هذا الذي لولا ذكره في كتاب الله ﷻ لرُفِضَتْ عن جدارة كل احتمالات التوقعات ودفعت بها إلى عالم المجهول دون سؤال.. ثم يشاء المولى ﷻ أن يحدوني بحظ الاحتباءِ بمشاهدة هذا الذي أثار فيَّ كل هذا الذي ذكرته من خواطر وهواجس وأشجان في أرض موطنه قبل أن تحكم عليه يد التطور بالفناء ليصبح في خبر كان!!..

وفي هذا المشهد الزاجر للعقول والأفهام، والمحرك للقلوب، في ختام العظة والتنبيه بقضايا النشأة والخلق والإيجاد والبعث بعد الموت للحساب؛ إذ أخذتنا الآيات إلى حيث النظر إلى ما فينا من عظيم الآيات.. ثم تنقلنا زجرًا وتنبيهًا إلى ما حولنا من آلاء الله فيما يحيط بنا في ربوع الأرض من آيات الحرث والزرع والإنبات.. ثم ترفع بأعناقنا في شَدْهٍ إلى السماء حيث الآيات المتراكبات في عظمتها وتناسق أدوارها؛ المتمثلة في عناصر الكون المشتركة في صنع ما عليه قوام كل الحياة في الأرض من عذب الماء..

وها هي تعود بنا إلى الأرض خاتمة لهذا التطواف الرائع لتلفتنا

إلـى معجـزةٍ بـاهرةٍ مـن معجـزات الخـالق المبـدع ﷻ متمثلـة فـي نعمة عظيمة من نعم الله وآلائه علينا - وما أعظم نعم الله علـى خلقه أجمعين - تلك النعمة التي هي سببٌ رئيسيٌّ في تنعُّمِنا طهيًا وإنضاجًا لطعامنـا، وصـناعة لخبزنـا وإعـدادًا لمـشروباتنا، وتدفئـة لأكِنـتِـنا وديارنا ومخادعنا وأجسامنا ليلاً، واتقاءً لزمهرير برد الشتاء وما قد ينزله بنا من صقيع، ودفعـا وتخويفـًا لأعدائنا من وحش وإنس!!.. هذه النعمـة التـي نتنعم بها ليل نهار ونحن عنها غـافلون.. ألا وهي نعمة النار!!..

وحكايـة توليـد النـار مـن خـضر العيـدان والفـروع مـن الأشـجار تحمل فـي طياتهـا معجزة عظيمـة فاقت كل توقـع أو إدراك، وقد لا يصدق بها إلاّ من شاهدها، أو من أمتعه الله ﷻ بقوة الإيمـان.. إلاّ أن عناصر أبطالها ما زالت حية قائمة في انتشار متنـاثر فـي موطنها علـى بعـض بقـاع أرض الحجـاز، وإن كانـت قليلـة ونـادرة فـي أيامنـا هـذه، وذاهبـة إلـى المـواراة والاختفـاء بالإبـادة والهـلاك.. وهـي دليـل إعجـاز وتصديق لما ورد في كتـاب الله العزيز، وإن كانـت آياتـه لا تحتـاج إلـى أدلة أو براهين؛ فـالمخبر عنهـا والقـائل هو أصـدق القـائلين{وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا } [النساء: ١٢٢]؟!.

فشبه جزيرة العرب على اتساع أركانها، وامتداد مراميها، وبُعد حدودها، وعمق أصقاعها، وانبساط ربوعها؛ كانت غنيـة فـي زمن تنزل الذكر الحكيم من لدن الله رب العالمين على قلب النبي الكريم، غنية بأنواع من الأشـجار، تتولـد النـار من حك جزء من أحد أفرع

شجرة منها بجزء آخر، فينتشر من بين الجزأين الشرر المتوقد بالنار حيث يوقد الناس بها ومنها أخشابهم وأحطابهم للطهي والتدفئة، وذلك قبل أن يتوصل فكر بني الإنسان إلى ما هداهم الله ﷻ إليه من اختراع ما يسمى بالكبريت وما تبعه بعد ذلك على مر الأيام من تطور لوسائل الإشعال والإيقاد، ومن حسن الطالع أن حباني الله ﷻ بمشاهدة بعض تلك الأشجار في إحدى زياراتي للحج؛ إذ لا زالت موجودة في بعض البقاع التي لم تمتد إليها بعد يد التحضر والتعمير في البلاد حتى يوم تدوين هذا البحث.. إلاّ أنها قد طالتها يد التجاهل والإهمال؛ ولم يعد للناس بها حاجة أو ضرورة من استخدام؛ بسبب انتشار إقامة القصور وتشييد العمائر والأبراج، وظهور ما جد من وسائل الوقود المتطورة من قداحات تعمل بالكهرباء المشحونة تخزينًا فيما يسمى بالحجارة والبطاريات، وما تلاها تطورًا من القداحات التي توقد بما شحنت به من أشعة (الليزر)، مما صرف الناس عن هذه الأشجار التي أصبحت غير ذي أهمية، إذ أتى عليها الناس تقطيعًا، وهلك منها الكثير في خضم التوسع العمراني وشق الطرق وما إلى ذلك.. ولم يعد منها في بعض الصحارى إلاّ النادر والقليل الذاهب نحو الاختفاء.. وهذه الأشجار تحمل أسماءً مختلفة حسب تميزها وجودة درجة الإشعال بها.. فمنها شجر " الكلخ " ومنها شجر " الكرخ " ومنها شجر " العفار ".. وهذه الأنواع من الشجر كانت ذي شهرة عريضة وعظيمة في طول وعرض البلاد في زمن تنزل القرآن الكريم على قلب الرسولﷺ وهو يحيا بين ظهرانيهم.. فكان أيهم إذا احتاج إلى النار ما عليه إلاّ أن يأتي بغصنين أخضرين من هذه الأشجار ويقوم بحكهما ببعض فينبعث من بينهما الشرر حيث يوقد منه ما سبق أن جمعه من أخشاب

وحطب للطهي كان أوللتدفئة.. فسبحان الله العظيم المخبر إيانا بهذا الإعجاز في كتابه العظيم بقوله:{ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾} [يس: ٨٠].

ومن هذه المعجزة الخارقة التي حوت الضدين المتنافرين من خضرة ونار.. تتقعد الآيات قاعدة راصدة لتنطلق منها بالزجر والتخويف، مهددة بالويل والثبور للعاصين والمنكرين الذين كفروا بنعمة الله ﷻ من بني الإنسان وجحدوه.. وبدلاً من أن يتقربوا إليه بالحمد عبادة خالصة، وبالشكر الواجب على هذه النعم الكثيرة والجليلة التي مدهم بها في منظومة مليئة بالخوارق من الأسرار التي لا يقدر عليها سواه.. إذ بهم يبارونه بالكفر والعصيان والشرك والطغيان.. فكان من رحمته ﷻ أن يذكرهم - عبر نار دنياهم هذه التي جعلها لهم سببًا في التنعم والترف - بنار الآخرة التي جعلها سببًا لشقاء من لا يرتدع منهم ويأوي إلى حظيرة الإيمان إذا ما حانت ساعة الحساب في يوم يجمع له الناس.. يذكرهم بها لعلهم إلى الحق يثوبون، ومن نار الآخرة ينجون ويَسلمون.. فها هو ﷻ يخبرهم ترهيبًا وتخويفًا بأنه كما خلق هذه النار التي بين أيديهم، وجعلها متاعا لهم وأمنًا؛ ومصدر إنعام ومتعةٍ ورفاهةٍ.. إذ هم يتمتعون ويتنعمون بها في حواضرهم ومواطن إقامتهم كما سبق بيانه، فهم يتمتعون ويتنعمون بها أيضًا في أسفارهم وتنقلاتهم إذ يرتحلون.. ومن هذا المنطلق يجعلها ﷻ تذكرة لهم تذكرهم بنار الآخرة الكبرى التي تنتظر المشركين والمكذبين الجاحدين منهم يوم الدين.. ألا وهي نار جهنم.. وهذا هو القول القاطع، والقضاء الحاسم؛ زجرًا لهم وتخويفا.. فهلاَّ خافوا الله ﷻ فيتقوا نار الآخرة ويخشونها.. إنهم لا يُنكرون على أنفسهم خشيتهم من هذه النار التي بين أيديهم..

ويتحاشون أذاها المستشري؛ إنهم يرونها إذا انطلق عنانها تأتي على كل أخضر ويابس، ويصير البعيد عن أذاها قريب، فلا تُفلت عند غضبها من ممتلكاتهم وأمتعتهم شيئًا، ولا ينجو من أشخاصهم وذواتهم منها أحد رغم مالهم فيها من منافع ومصالح.. هذه هي النار التي بين أيديهم والتي يخافون مسها في حياتهم الدنيا، ويحذرون لهيبها رغم ضآلتها إذا ما قورنت بنار الآخرة؟!!.. إذ يذكر لهم ولنا رسول اللهﷺ في الحديث الشريف ما نصه (إن ناركم هذه التي توقدون جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم)!!.. فكيف عليها يصطبرون؟!!..

وتعود الآيات إلينا مرغبة في صدق ووُدًّ.. دافعة إيانا إلى الطريق الحق.. فتدعونا إلى الاعتراف الواجب للخالق المتفرد في علمه وقدرته ﷻ - استنادًا إلى ما سبق أن عرضته علينا من عظيم الآيات - من حيث وجوبية التسليم إليه، خضوعًا لعظمته، وإقرارًا بشامل وكامل إحاطته.. إحقاقًا لطلاقة حقه؛ تيقنًا منا بعِظم عطاياه، وسابغ نعمه، وأسرار حكمته التي ارتبط بها إعجاز خلقنا، وإمدادنا بما جعله سببًا لاستمرار حياتنا، وتمَلـُّكه لنا، وقدرته علينا خلقًا وإيجادًا، وإحياءً وإماتة، وبعثًا ونشورًا، وتحذيرًا لنا من عقاب الآخرة وترغيبًا لنا في نيل خيرات الآخرة.. فما كان علينا من حق إلاَّ الإقرار بجميع ما سبق ذكره.. والإيمان - إقرارًا وتسليمًا - بخالقنا الذي أوجدنا، وأوجد كل هذه النعم لنا إبداعًا من العدم.. وتنزيهه ﷻ عن كل ما لا يليق به مما تجدوه في أنفسكم من نقص أو عجز أو تشبيه.. إذ (ليس كمثله شيء) ﷻ.. فحقٌّ علينا أن نعود إليه مذعنين.. ونتوجه إليه شاكرين.. ولحكمته مسلّمين.. فما أجَلَّ شأن الله!!.. وما أعمَّ إحاطته بما خلق.. وما أعظم سلطانه.. ويا له من إلهٍ حنان

الفصل الخامس: علاقة الهداية بين النجوم والقرآن

الفصل الخامس

علاقة الهداية بين النجوم والقرآن

الفصل الخامس
علاقة الهداية بين النجوم والقرآن

{فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾} [الواقعة: ٧٥ - ٨٢].

سبحان الله العظيم!!.. سَلَّمَتْ يا ربَّنا قلوبُنا وعقولُنا بعظمتك من خلال مشاهدة عظيم آلائك وبديع آياتك، فقد حارت بنا الأفهام والعقول أمام ما عرضت علينا من إجلاء ما كان قد خفي علينا من أسرار بعض مخلوقاتك.. وما أعظمها!!.. مع إقرارنا بأن عظمة المخلوق لا بد أن تكون من عظمة الخالق ﷻ.. فالعظيم لا يخلق إلاّ عظيمًا.. مع تسليمنا المطلق بأنك أنت الله الذي (ليس كمثله شيء).. وأنك أنت الله الذي (ما قدروه حق قدره).. سبحانك!!.. لا يعلم قدرك إلاّ أنت.. وكيف يحيط المخلوق بقدر خالقه ومبدعه.. سبحانك!!.. لما كان قرآنك الكريم؛ الذي نزلته على قلب رسولك الكريم ﷺ تبيانًا لكل شيء، والذي بينت لنا فيه ما كنا عنه غافلين؛ مما كان خافيا علينا من بعض أسرار آيات خلقك.. بدْءًا بخلقنا وتناسلنا تخالفًا في الأرض.. وما أبدعت لنا من سوابغ نعمك (الباطنة أسرارها، والمكنونة فينا وفي سائر مخلوقاتك.. والظاهرة أمام أنظارنا في بدائع صنعك في أرضك وسمائك) من زرع وماء ونار.. إذ بك سبحانك تردف كل هذا الذي بينته لنا في كتابك (وما أعظمه!!) بقسم عظيم بما شئت من مخلوقاتك؛ وكلها تحمل من عظيم الأسرار ما يخفى عن الكثير إلاّ ما هديت ومن هديت ورحمت من خلقك!!.. تقسم سبحانك بمواقع نجوم السماء (وما أعظمها) على جلال القرآن الكريم وعظمته - هذا القرآن الذي ذكرت لنا فيه جميع هذه النعم المعجزة عبر آياته المقروءة - وما أعظمه سُمُوًّا ورفعة.. وما أُعلاه شأنًا ومنزلة.. وكيف

لا وهو كلامك؟!!.. ومن هذا الجاحد الذي يحتاج أو ينتظر منك سبحانك القسم؟!!.. وآيات الإعجاز فينا وفيما حولنا تنطق بوحدانيتك.. وتشهد بقدرتك.. وتترنم بتسبيحك!!.. فتقسم سبحانك بأنه تنزيل منك وأنت العزيز الحكيم، وأنه قرآن كريم، لا يخالطه افتراء.. ولا يعتريه سحر.. ولا تشوبه كهانة كما يدَّعي الجاحدون.. وأنك سبحانك أنزلته معجزة لنبيك ﷺ، وهو الكتاب العزيز الجانب.. المصان الأصل.. والمحفوظ المكانة عندك سبحانك.. في اللوح المحفوظ إنه كتابك المعجز المنزه عن الباطل.. تكفلت بحفظه فلا يطرأ عليه تبديل.. ولا يتعرض لتغيير.. إنه الكتاب المقدس الذي قدسيته من قدسيتك سبحانك.. ولأجل هذه القدسية، وسمُوِّ مكانته وجلال شأنه؛ لا يجوز أن يمسه إلاَّ بعد تطهر للمريد وتطهير!!..

وانظر معي يرحمك الله بعين بصيرتك إلى ما أقسم الله ﷻ به على مكانة القرآن الكريم الذي أنزله هداية للناس أجمعين.. لقد أقسم الله ﷻ على ذلك بمواقع النجوم ذات المنازل السامية، والبروج المنتظمة العالية، والأفلاك الثابتة.. وإنه لقسم عظيم من قاسم عظيم جليل.. ألا وهو رب العالمين ﷻ!!.. بمقسوم به مهاب عظيم.. ألا وهي مواقع النجوم!!.. على مقسوم عليه عظيم.. ألا وهو القرآن الكريم!!.. بأن هؤلاء المتجرئون بتكذيب القرآن لو كانوا يُخضعون عقولهم وأنظارهم للتدبر الصادق، والتفكر المتجرد، والفهم المتعقل؛ في حيدة وتروِّي لآياته المقروءة ومطابقتها لما يدعوهم إلى النظر فيه من الآيات الكونية المنظورة؛ لتجلت لهم عظمته.. واهتدوا إلى معرفة قدره.. ولآمنوا به ونجو من عذاب يوم الدين.. ولكانوا لله ﷻ من الشاكرين على ما اهتدوا إليه مما دلهم عليه في كتابه الكريم من أسرار خلقه وفيوضات فضله، وسوابغ نعمه عليهم.. بدلاً مما وطنوا عليه أنفسهم، وأقاموا عليه أخلاقهم من التكذيب على غير علم أو

دراسة، وكفرانهم وجحودهم بالمنعم ﷻ الذي تفضل عليهم بجل النعم هبة منه وعطاءً؛ من غير حول منهم ولا قوة!!.. أفلا يكون من العجب العجاب أن يقابل هؤلاء الجاحدون المنكرون إنعام المنعم عليهم بالكفر به والإشراك بدلاً من التوجه إليه بالحمد له والشكران؟!!.. ألم يستمعوا إلى قول الحق.. هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟؟!!..

وهناك لطيفة لابد من الوقوف عندها، والتنويه إليها.. وهي من أسرار ما ورد من خصوصية القَسَم في الآيات المذكورة بأطرافه الثلاثة!!.. إذ إن الله ﷻ أقسم بمواقع النجوم دون غيرها من عظيم خلقه على القرآن الكريم وعظمته.. (مع التسليم بأن جميع خلق الله ﷻ معجز وعظيم.. وأنه ﷻ له أن يقسم بما يشاء من خلقه على ما يشاء؛ ولا راد لحكمه.. ولا معقب لمراده ومشيئته).. إلاّ أننا بالتأمل الدقيق والتمعن الرويّ نعلم ونعي أن الله ﷻ لا يقسم إلاّ بما يليق من القسم على ما هو لائق من المقسوم عليه!!..

وعلينا أن نفطن في تيقن نابع من الإيمان إلى أن كل حرف أنزله الله ﷻ في كتابه العظيم له ضرورته ومغزاه في موضعه بكل دقة وإتقان؛ وإن لم نكن لنهتدي إليه لولا أن هدانا الله ﷻ.. ولذلك طولبنا مكلفين بالتدبر والتعقل والتفكر عند قراءة آيات القرآن العظيم في محاولة صادقة للاهتداء إلى ما يُقدِّرُ الله ﷻ لنا من تلمس عظمة معانيه والوقوف على ما يكشفه لنا ﷻ من أسرار تنزيله، وفقه مراميه!!..

وبالتأمل في هذه الآيات، من هذا المنطلق؛ تدبُّرًا وسعيًا للوصول إلى حقيقة وكُنهِ هذه الخصوصية المشتركة.. **نجد أن ((الهداية)) فيها تمثل العامل المشترك بين جميع أطراف القسم**!!.. وهي الغرض الأسمى من سياقه بهذه الصيغة الحكيمة.. كما أنها تمثل رمانة الميزان التي

تعدل بين كفتيه المتمثلتين في كلٍّ من المقسوم به والمقسوم عليه!!..

فالقسم بمواقع النجوم إشارة إلى النجوم التي في السماء؛ والتي جعلها الله ﷻ ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر..{وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ} [الأنعام: ٩٧].

والقرآن الكريم أنزله الله ﷻ ليهدي به الناس وينقذهم من ظلمات الجهل والغي الضلال:{ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } [البقرة: ٢].. ويخاطب النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام{فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ **وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** } [البقرة: ٩٧] {شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ **ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ** وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ } [البقرة: ١٨٥]..

وبذلك يكون قد تبين لنا بفضل الله ﷻ أن هذا القسم جمع بين الهدايتين ومصدريهما.. **الهداية الأولى**: وهي الهداية الخاصة بالنجوم.. وهي تمثل الهداية الحسية للناس في الظلمات.. **والهداية الثانية**: وهي الهداية الخاصة بالقرآن الكريم.. وهي الهداية المعنوية للناس في ظلمات الجهل والضلال.

ثم نتوجه إلى القاسم ﷻ ونخر له ساجدين؛ إذ لا هداية إلاَّ لمن هداه الله ﷻ{**بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ**} [الحجرات: ١٧]..{**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ** وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ } [الزمر: ١٨]..{ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** } [آل عمران: ٨].. ونختم بحسم الهداية لله ﷻ بهاتين الآيتين الحاسمتين{قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ} [البقرة: ١٢٠]..{مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} [الكهف: ١٧].

وسبحان الله العظيم!!.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين!!..

* * *

نظرات في آيات منظورة في الكون
فاعلة فينا.. وفيما نقتات

آيات إعجاز تتجلى في أفق السماء، متواليات علينا دون غياب أو انقطاع.. تعمل فينا ولنا.. إن اختل نظامها فنحن بلا شك هالكون.. ومع ذلك فنحن عنها غافلون!!..

{وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾} [يس: ٣٧ - ٣٩].

وهكذا أتتنا الآيات بإشارة رمزية داعية إيانا بني الإنسان لإعمال مداركنا وحواسنا في محاولة للوصول إلى بعض ما فيها من أسرار.. واستجابت عقول العلماء وتفاعلت مع ما لفتتنا إليه الآيات بتوفيق من الله سبحانه وتعالى حتى كشف لنا العلم يومًا بعد يوم - الكثير من حقائق تلك الآيات الكونية المنظورة - ما أجمله القرآن الكريم في آياته المسطورة!!.. فلقد ثبت لعلماء الفلك بما لا يدع مجالاً للشك في عصورنا المتأخرة أن الظلام هو أصل الكون وأن النهار هو طارئ عليه.. وسبحان من أجمل ذلك في قوله:{وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ} [يس: ٣٧].
{أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا} [الأنبياء: ٣٠]، والرتق هو الالتئام.. أي كانتا ملتحمتين.. وهل بين الملتأمين إلاّ الظلام.. وبفتق (فصل) السماوات عن الأرض انفرج ما بينهما فكان الضياء الذي طرأ على الأرض لارتفاع السماوات وانفراجها عنها!!.. وبذلك كان تمام فلق الإصباح من الليل، فكان الضياء.. وكانت الشمس علامة عليه ودليلاً بازغًا لا يُنكَر.. وهي

على هذا الحال إلى يوم الدين{ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾} [يس: ٣٨].. وجعل الله ﷻ الأرض كروية تميل في شكلها إلى التحدب في طرفيها (أشبه بالبيضة).. وجعلها تدور حول نفسها في مواجهة الشمس.. وكلما كان منها شيء في مواجهة الشمس وهي في دورانها حول نفسها كان النهار والضياء.. ويكون ذلك تدريجيا بما يتناسب مع هُدوٍّ حركتها الغير محسوسة لمن عليها من الكائنات!!.. وما كان منها متجها إلى الجهة العكسية كان الليل والظلام.. وكلما تحركت الشمس في دورانها انسلخ النهار شيئا فشيئا في امتداد انسيابي لا يلاحظ ويحل الليل محله بنفس الهدوء والانسيابية التي صاحبت تلك الحركة حتى يعم الليل هذه البقعة التي كانت مضاءة!!.. ويتولد عن هذه الحركة الدائبة المواقيت الخمسة على جميع أركان الأرض في تتابع لا ينقطع ولا تفصله أزمان (صبح - ظهر - عصر - مغرب - عشاء) حتى أن هذه المواقيت الخمسة بإقامة صلواتها تقام في كل بقاع الأرض وفي ذات الوقت في كل ثانية من ثواني الزمن.. لأن النهار في هذه الحركة ينسلخ شيئا فشيئا عن هذه الجهة من الأرض لينتقل إلى امتدادها مما جاورها أيضا بنفس الحالة من الرتابة وعلى نفس الوتيرة من سلاسة وهدوء!!.. ولا ينزع النهار نزعًا من مكان ليلصق لصقا بالآخر.. وتظل الأرض بهذه الحركة السلسة حول نفسها أمام الشمس بحيث يتعاقب الليل والنهار على جميع محيط الأرض كل يوم مرة بهذه الرتابة الهادئة على ساكنيها في غير إزعاج أو اضطراب أو تكدير!!.. وسبحان من خلق كل شيء موزونا، وقدره تقديرا!!..

ومن عجائب الإعجاز أن الله ﷻ جعل الأرض تدور بكليتها دورة أخرى حول الشمس وهي على حالتها من الدوران حول نفسها؛

إذ يتولد من هذه الدورة الكبرى حول الشمس فصول السنة الأربعة (شتاء - خريف - صيف - ربيع).. وسبحان مقدر الأقدار!!..

{ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾} [يس: ٣٩].. وهكذا لم يترك الله ﷻ [وهو الرحمن الرحيم] سكان الأرض في وحشة من أمرهم إذا ما غابت عنهم الشمس بضيائها وتركهم النهار بحيويته.. إذ جعل لهم القمر ينير لهم ظلمات الليل ويذهب عنهم وحشة الظلام!!..{ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا } [يونس: ٥].

وهكذا جعل الله ﷻ الليل والنهار مرتبطين بالشمس والقمر.. (ولقد قدمنا الشمس هنا على القمر على خلاف سياق ما بدأنا به هذه الفقرة لأن الله ﷻ جعل القمر يستمد نوره من الشمس.. فالشمس هي مصدر إمداد القمر بما ينشره من نور على ظلام الليل في النصف الآخر من الأرض.. إذ إن القمر يقابل الشمس في الجهة الأخرى من الأرض التي يلفها الظلام!!..

وكما أن الشمس بدوران الأرض أمامها حول نفسها ينتج عنه ساعات اليوم وأوقاته بما يستغرقه اليوم الكامل كما سبق أن بينا.. وكما أن دوران الأرض بكليتها حول الشمس الدورة الكبرى التي ينتج عنها الفصول الأربعة والتي تستغرقها ما تسمى السنة الشمسية بأكملها.. فإن القمر أيضا يبين لنا بحساب منازله أيام وشهور السنة القمرية!!.. فالقمر إذ يبدأ في أول ليلة من الشهر هلالاً على هيئة القوس المنحني ثم يزداد حجمه وحيزه ليلة بعد ليلة متنقلاً في منازله المتصلة في توال دقيق حتى يبلغ ربع حجمه فيما يسمى بـ (التربيع الأول) مؤذنـًا بتمام الربع الأول من الشهر القمري.. إذ يستمر في الازدياد مُحْدوْدَبًا على اتصال منازله ليلة بعد ليلة حتى يبلغ نصف

حجمه فيما يسمى بـ (البدر) معلنـًا تمام النصف الأول من الشهر.. عند هذا الحد يبدأ حجمه آخذا في التناقص محدودبا عكسيًّا إلى الاتجاه الآخر المعاكس لاتجاه البداءة حتى يصل حجمه إلى ما يسمى بـ (التربيع الأخير) معلنـًا إتمام الربع الثالث من الشهر.. ويستمر في تقهقره الرتيب عبر منازله متناقصًا حتى يختفي فيما يسمى بـ (المحاق) معلنـًا إتمام شهر مضى.. ليبدأ هلالاً جديدًا معلنًا بدء اليوم الأول لميلاد شهر جديد!!.. وهكذا تكون رحلة الأرض مع الشمس، ورحلة القمر مع الأرض مرتبطة ببعضها البعض ومتفاعلة في إحداث الليل والنهار وتوقيت المواقيت وتتابع الفصول في استمرارية لا تفتر ولا تنقطع فسبحان{فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾} [الأنعام: ٩٦].. دواليك إلى يوم الدين.. سبحانه أقام كل شيء بالميزان{وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى} [الرعد: ٢].. فسبحان الله بديع السماوات والأرض.. وسبحان الله العظيم القائل:{وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾} [الإسراء: ١٢]!!..

العلاقة الوطيدة بين كل من الشمس والنهار، والقمر والليل بالإنسان:

تتضح هذه العلاقة في وضوح لمن يتدبر معاني هذه الآيات التي تنظم حياة الإنسان على الأرض:

{أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾} [النبأ: ٦ - ١٦].

ينبهنا المولى ﷻ بدءًا إلى حكمة خلقنا من ذكر وأنثى (أزواجًا) ليلفتنا إلى عملية التناسل وما أعد لها من أجواء تساعد عليها من سعي لتحصيل المعاش وجلب القوت - الذي هو أساس وأصل التناسل - نهارًا.. ثم الراحة والسكون في هدوء ومودة تمهد لنا إلى الملابسة التي تحقق الجماع بين الأزواج لهدف التخالف والتناسل في سكون الليل وهدوئه.. فالمتأمل في هذه الآيات لا بد أن يقف على مغزى تتابعها على هذا السياق المعجز؛ المترابط بتداعيات الحال في بني الإنسان.. فالله سبحانه وتعالى يقول:

وجعلنا نومكم سباتًا (أي راحة) والنوم هنا وبهذا المعني قد يكون نهارًا (وقت القيلولة) كما يكون ليلاً أيضا (طلبًا للراحة) بعد معاناة السعي والضرب في الأرض والجد سعيا للحصول على الرزق.. والاشتغال بإعمار الأرض حرثا أو تصنيعا أو تشييدا أو عملاً مهنيا كان أو حرفيا تحقيقا لما خلقنا الله سبحانه وتعالى من أجله مصداقا لقوله سبحانه وتعالى:{هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١].. وقوله سبحانه وتعالى:{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾} [الكهف: ٧].. وقوله سبحانه وتعالى:{هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾} [الملك: ١٥].. والآي في ذلك كثير؛ وما أوردناه ما هو إلا أمثلة للاسترشاد ليس إلاَّ؟!!..

وتخبرنا الآية التالية بقوله سبحانه وتعالى:{وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾} [النبأ: ١٠].. ومن المفيد هنا ذكر آية الأنعام رقم ٩٦ المنوه عنها في هذا السياق التي قال فيها سبحانه وتعالى عن نفسه:{فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا } [الأنعام: ٩٦].. وأنا أدعوك لربط الأسباب والشواهد في هاتين الآيتين بما نصت عليه الآية ١٨٧ من سورة البقرة{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ (الجماع - والمعاشرة الجنسية) إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ

لَّهُنَّ} [البقرة: ١٨٧] والآية ٢١ من سورة الروم:{ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ **خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ** إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾} [الروم: ٢١].. ومن هنا نجد الارتباط الوثيق بين سكن الليل وسكن الأزواج.. ولباس الليل ولباس الأزواج.. إذ إنه من المؤكد أن المعاشرة التي هي سبيل التناسل لا تقع بحال من الأحوال إلاَّ في ظل السكن والمودة والتراحم بين الأزواج، ولا يكون ذلك بطبيعة الحال وقت النهار الذي هو مخصص للسعي والجد والضرب في الأرض تحت حرارة الشمس وأشعتها الحارقة.. بل تكون في وقت الليل في التحافٍ بالود والرحمة والتحنان؛ محاطا بسكون الليل وهدوئه.. في ظل نور القمر الحالم الفضي، الذي يضفي على الكون هدوءًا وجمالاً.. ويثري النفوس راحة وودًّا وحنانا.. فيُقْبِل الأزواج على بعضهم البعض في تراحم وتودد للتزاوج حيث يكون التناسل للأولاد والأحفاد!!.. ولهذا فإن الآيات المذكورة بعد أن بينت لنا صفات الليل وما فيه من سكن ولباس ناتج عن الأمن والطمأنينة والهدوء والأمان تردف لنا ذلك بما يخص آية النهار بقولها{**وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا** ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ **وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا** ﴿١٣﴾} [النبأ: ١١ - ١٣] فربطت الآيات بين السعي على المعاش والسراج الوهاج (الشمس) الذي يبث الطاقة والحيوية في الكائنات الحية - ومنها الإنسان - لزوم الانتشار في الأرض، والضرب فيها إعمارًا، وللأرزاق تحصيلاً طوال فترة النهار!!.. فمن اتبع طريق الحق الذي أقره لنا الإله الحق ﷻ عاش سعيدًا غير مكدود ولا محروم (غير مكدود في صحته وغير محروم من تحصيل رزقه).. فاعتبروا يا أولي الأبصار؛ ولا تخالفوا ما شرع الله ﷻ لنا من موازين.. هو أعلم

بما يُصلِحُنا ويَصْلُحُ لنا!!..

* * *

معجزات الأسرار
فيما ترسل الشمس من أشعات

- للشمس مهام ذات تأثيرات مباشرة على حياة الإنسان؛ وكلها لا تخرج عن دائرة الإعجاز.. نذكر منها:

أ – فيما يخص النبات:

- فالشمس بأشعتها تساعد النبات فيما يسمى بعملية (النَّتْح).. وهي عبارة عن إجراء عملية التَّبَخُّر السطحي؛ لإفقاد النبات الماء الزائد عن حاجته عبر وريقاته وسيقانه الخضراء!!..

- كذلك إتمام ما يسمى بعملية (التمثيل الضوئي).. وهي عملية حيوية يجريها النبات مكونا غذاءه العضوي من عناصره البسيطة التي يمتصها الساق من التربة.. ولا يتم ذلك إلاَّ بوجود اليخضور(المادة الخضراء الملونة للنبات) في النبات مع توافر ضوء الشمس!!.. وفي غياب ضوء الشمس لا يتم صناعة هذا الغذاء على الوجه الأكمل للنبات!!.. والنبات هو مصدر طعام الإنسان وعليه قوامه!!.. سبحان الله العظيم!!..

- كما أن عملية النضج لا تتم إلاَّ بتوافر حرارة الشمس الذي يكتسبها النبات وما يحمله من ثمار وحبوب!!..

ومن المفيد هنا التنبيه إلى أن شكل الأرض البيضاوي يعمل مع دوران الأرض حول الشمس إلى تغير النهار بين الطول والقصر عبر الفصول الأربعة المذكورة بما يتناسب مع ما تنبته الأرض من نبت.. فنجد النهار يطول صيفًا بما يناسب النباتات التي تحتاج إلى

المزيد من ضوء النهار وحرارة الشمس؛ وهي النباتات المعروفة بالنباتات الصيفية.. ويقصر في الشتاء بما يناسب النباتات التي تحتاج إلى قدر محدود من الضوء والحرارة؛ وهي التي يطلق عليها اسم النباتات الشتوية.. وبين الأمرين يتراوح طول النهار في الخريف والربيع بما يناسب ما تنبته الأرض وتخرجه مما أودع الله فيها من بركات على مدار العام ليتنعم بها بنوا البشر!!..

ب – فيما يخص البحار:

- دورها في عملية البخر لأسطح مياه البحار والمحيطات لإنتاج الماء العذب.. وقد سبق عرضه بالتفصيل..

- بث درجة الحرارة المناسبة لحياة الكائنات الحية في الأنهار والبحار(ومنها مختلف أنواع الأسماك) التي تمثل غذاءً للإنسان..

جـ – فيما يخص الإنسان:

- تقوية عظام وأعصاب الإنسان بما تبثه فيه خلال الساعات الأولى (إذ هو ذاهب إلى عمله)، والساعات الأخيرة من النهار(إذ هو عائد من عمله) من أشعة تتحول في جسم الإنسان إلى فيتامين (د)..

- تكييف الهواء نهارًا بالتدفئة مما يبث في أجسام الكائنات (بما فيها الإنسان) الحيوية والنشاط ويساعدها في بذل الجهد في العمل والسعي..{وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾} [النبأ: ١١].

* * *

معجزات الأسرار
في الإنبات والأشجار

- لعلك تعجب معي.. ونسجد سويًّا للخالق المبدع ﷻ في خشوع إذا علمت أن النباتات جميعها فطرت على تنفس الهواء كما جميع الكائنات!!.. هذه واحدة (قد نعجب لها).. والأعجب منها أن تعلم أن النباتات على جميع أنواعها في تنفسها ليلاً تنفث في الجو طاردة (ثاني أكسيد الكربون) ولا تأخذ من الهواء إلاّ عنصر (الأكسيجين) ليلا (وهو الوقت الذي حدده اللهﷻ لنوم الإنسان؛ وراحته بعد عناء يومه وكدحه).. وهذا يتناسب مع قلة احتياج الإنسان لهذا العنصر الحيوي والهام ليلاً حيث يكون جسم الإنسان في هدوء وخلود وسكون.. لا يبذل جهدًا ولا يعاني كدًّا يجعله في حاجة إلى المزيد من هذا العنصر الحيوي للكائنات (والذي ترتبط به استمرارية الحياة بلا جدال)!!..

- كما أنها تأخذ من الهواء (ثاني أكسيد الكربون) نهارًا وتطرد (الأكسجين) لكثرة احتياج الكائنات (ومنها الإنسان بالطبع) لهذا العنصر الحيوي نهارًا؛ لما يبذله من جهد ونشاط سعيا وضربا في الأرض إعمارًا وطلبا للرزق!!.. ولعلك تتساءل معي.. إن كان هذا من قبيل المصادفة أم من تدبير أحكم الحاكمين ﷻ الذي يُجلّي لنا سرًّا من أسرار خلقه للأرض؛ مخبرًا إيانا في كتابه قائلا:{وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} [الحجر: ١٩].. ولقد سبق أن بينا بالتفصيل - في موضعه - أن الإنسان نبت من نبات الأرض كما جميع النباتات{وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} [نوح: ١٧ - ١٨]؟! فسبحان الله رب العالمين الذي خلق كل شيء بالعدل والميزان!!..

- يتنعم الإنسان بظلها الظليل وقت راحة القيلولة في الحقول، ويتناول في كنفها طعامه.. كما أنه يستعمل أخشابها في عملية الوقود.

* * *

معجزات الأسرار
في الهواء والرياح

- الهواء هو المصدر الوحيد لتنفس الكائنات (بما فيها الإنسان) بما يحويه من عناصر حيوية؛ ليس هنا مقام تفصيلها.. ومن غيره يموت كل كائن حي..

- الهواء وسيلة للتدفئه حيث ينقل الحرارة ويوزعها في الأماكن المراد تدفئتها عن طريق ما يسمى(تيارات الحمل) فيشيع الراحة والهناء على الحضور.. وخاصة في الليالي الباردة.. وفي أيام الشتاء..

- الرياح هي الواسطة الوحيدة لتلقيح النباتات الأنثوية باللقاح الذكري من الأشجار.. حيث تهب على الأشجار والنباتات الذكرية فتحمل منها حبوب اللقاح وتلقي بها على الثمار الأنثوية منها فيتم التلقيح ويتم بها نمو الثمار ونضجها، حتى تصير يانعة سائغة لغذاء الإنسان..{ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ } [الحجر: ٢٢].

- الرياح موكول إليها عملية تجميع شتات السحب من مصاعد تبخرها المبعثرة في أرجاء الفضاء حتى تتراكم كالجبال.. ثم تسوقها - بعد تجميعها - إلى حيث يقدر الله لها ويشاء من مساقط حيث يتنزل عذبها مطرًا سائغا.. وقد سبق ذكر ذلك بالتفصيل..

* * *

معجزات الأسرار
في مياه البحار والأنهار

أولا: مياه الأنهار:

وهي المياه العذبة التي أمطرت من السحب.. فمنها ما اختُزن في جوف الأرض ويستخرجه الإنسان عبر الآبار حسب الحاجة.. ومنها ما جرى في مجاري الأنهار عبر المساقط الطبيعية.. يشرب منه الإنسان، والحيوان، والطير، وسائر الكائنات.. كما تسقى منه المزروعات.. كما يستخرج من هذه المجاري المائية بعض أنواع الأسماك التي تمثل غذاءً مهما للإنسان..

ثانيا: مياه البحار والمحيطات:

- هي أصل الماء العذب ومخزنه.. كما سبق بيانه.. ومن رحمة الله ﷻ وبقدرته أن جعلها ممزوجة بالملح المركز حتى يتم حفظها من العطن والعفن والفساد(فالملح مادة حافظة كما يعلم الجميع).

- تحمل السفن والبواخر بما عليها من الناس وما يصحبون من أمتعة وأحمال وأثقال.. تجوب بهم حيث يشاؤون..

- يستخلص منها ملح الطعام.. كما يستخرج منها أنواع كثيرة من الأسماك والفطريات.. ويستخرج منها الحلي من ياقوت ولؤلؤ ومرجان...... الخ.

وإليك ما نبهنا الله ﷻ إليه من أمر كلٍّ من النوعين من المياه؛ جامعًا كل ما سبق من سرد وتبيان في قوله ﷻ:{وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾} [فاطر: ١٢].

بتوفيق من الله ﷻ وهداية منه، وعلى قدر جهدنا المتواضع - فإنما الكمال لله وحده - أعاننا الله ﷻ على بيان ما هدانا إليه من تبيان لبعض الأسرار والمعجزات في آيات خلقنا، وما نقتات به وما عليه مدار حياتنا من سر البقاء.. ولما كان القرآن الكريم هو الكتاب المنزل دستورًا شاملاً لكل زمان ومكان إلى يوم الدين؛ فإني أجذم أن ما سيأتي على الدنيا من عصور لاحقة ستشاهد الكثير من الكشف عن الكثير من الأسرار والمعجزات بكثير من التفصيل الذي ليس من حظ عصورنا هذه التي مضت والتي نحياها أن تشهد وتعايش تجلي أسرارها..

* * *

المعجزة الكبرى

ونأتي إلى معجزة المعجزات.. وسر الأسرار.. الذي حير أصحاب النهى والأفكار.. وخضعت له رقاب العظماء كما خضعت له رقاب الوضعاء.. لا فرق فيه بين فقير وغني.. ولا ميزة معه لذي سلطان عن غيره ممن لا سلطان له.. إنه الموت!!.. وما أدراك ما الموت؟؟!!..

وقبل أن نثبر أغوار هذا الإعجاز في غيب غيبه؛ لا بد لنا من وقفة خاصة بالإيجاد وولوج باب هذه الدنيا بالميلاد؛ قبل أن نجرؤ الاقتراب من بوابة الرحيل ومفارقة كل من ألفناه من سليل وقريب أو خليل.. ومغادرة كل ما اطمأننا إليه من نعيم ظننا أنه دائم لا يزول!!..

لقد أسهبنا في عرض معجزة الإيجاد والخلق ما نظن أن فيه الكفاية على قدر ما أباح الله ﷻ لنا وسمح من كشفٍ لأسرار علمه القديم مما كان خافيا على من سبقونا من بني البشر..

فمعجزة الإيجاد لا تقل خطرًا عن معجزة الموت..

كيف؟؟!!.. أقول وبالله التوفيق.. إذا كنا شاهدنا عبر أعين العلماء، ومن خلال المجهر الزجاجي أن كلاً منا كان يمثل في بدئه جزءًا من ملايين الأجزاء من نقطة ماء مهين واحدة لا يتعدى حجمها وحيزها بصقة الإنسان.. وسلمنا بذلك؟!!.. فإني لأتساءل معك.. من أين أتت هذه النقطة من الماء؟!!.. فإن كانت الإجابة أن مصدرها لابد أن يكون: من صلب الوالد.. إلى رحم الأم.. وهذا صحيح!!.. فإني أردفك بسؤال آخر.. وهو:قبل ميلاد الوالد أين كنت؟!!.. فتقول: كنا جميعًا في صلب الجد.. فأقول لك: وقبل الجد

أين كنت أنت وأنا؟!!.. إنه حوار محير لا نهاية له.. ونجد الخلاصة المجدية أننا أنا وأنت وجميع البشر كنا في علم الغيب.. الذي لا يعلم علمه إلاّ علاّم الغيوب ﷻ وهو القائل:{هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾} [الإنسان: ١]..

وبما أنه قد تأكد لدينا من هذا الحوار المنطقي أننا قد جيء بنا من لا شيء.. وهو ما تحقق لنا من الآية المذكورة الحاسمة.. وأن مجيئنا المباشر كان تكوينه وتناسله من السبب الأصلي الذي خلق منه أبو البشر (آدم عليه السلام) أي نبتا من ماء الأرض وترابها{وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾} [نوح: ١٧] فإذا جاء الموت عادت أجسامنا التي بنيت وربيت ونمت من الأرض وما فيها؛ إلى أصلها ومنبتها ونشأتها (الأرض) تحقيقا لما ذكر في سياق الآية{ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} [نوح: ١٨] " يوم البعث والنشور ".. أما النفس فلها شأن آخر حيث تعود إلى حيث كانت في المبدأ.. فهي صائرة إلى عالم البرزخ انتظارًا ليوم البعث والعرض - للحساب - على رب العالمين..

وهكذا نجد أن قضية الخلق والإيجاد لنا بدأت من الغيب بإعجاز فريد.. كما هو أمر النهاية مكنون بالغيب بإعجاز فريد.. إذ إننا بالموت نكون منقولين أنفسًا من هذه الدار في الحياة الدنيا إلى عالم البرزخ؛ مغادرين هذا الجسد الذي كان لأنفسنا كِنًّا وسكنا حيث كان من الأرض نبت ونشأ، ومع مر الزمان تم بناءًا ونما.. وإذ بنا عند حلول الأجل نتركه راحلين في طريقنا المحدد سلفًا وأزلاً إلى حيث كان البدء قبل الظهور بمشيئة الإيجاد والشهود!!.. فـ{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦].. فهو ﷻ غيب الغيب.. وعنده كنز العماء والخفاء الأزلي لا يُجَلِّى منه إلاّ بقدَر ومقدار..{إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾} [يس: ٨٢]..

ومن دقيق المقادير ورقة الحكمة أن كل منا كما جيء به إلى هذه الدنيا فردًا وحيدا يُخرَجُ أيضًا منها فردا وحيدا، كما يعود جسمه مقبورًا في الأرض التي أنبت منها فردًا وحيدًا{وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ٩٤].. فسبحان الله الذي شاء وقدَّر!!.. ومن العدم أوجد... ثم أمات وأحيا!!.. والحمد لله رب العالمين..

* * *

كلٌّ إلى الأصل يعود

يا نفسُ صَبْرًا.. أبْشري.. فالْعَيْشُ لنْ ::: يَبْقَى طـويلاً في الـدَّنايا وَالـدّنا
مهْما رَأيْت الْعُمْرَ طُولاً في الـضنى ::: حتمًا سيُقْضَى.. بالرَّحيل عنْ هُنـا
هذا البلاءُ وَاقِعٌ.. عَـمَّ الجَـسدْ ::: سُكْناك ذا.. لنْ يَـسْتمرَّ مَـسْكَنا
الأَصْلُ أنت.. وَهْوَ ثوْبٌ مُبْتلـى ::: عندَ الْخُروج.. تخْلعيـه.. وَاهنـا
إنْ كانَ فيه ضيقُ عَيْش.. فاصْبري ::: وَلْتحذ رى.. خلط الصَّفاء.. بالرَّنا
الفوْزُبالصَّبْرَ عَلَىَ شَهْوَات جـسـ ::: م يَحْنو نحْوَالطينة.. أصْـلَ البنـا
سَوْفَ تعُودي حُرَّةً.. نحْوَ الـسَّما ::: وَالْجسْمُ يَلقىَ أصْـلهُ ذا مَـدْفنا
كلٌّ يَعُودُ.. حَيْثُ أصْل النـشأة.. ::: أنت هُناكَ في العُلا.. وَهْـوَ هُنـا

* * *

وهكذا يتبين لنا أن أصل كل منا هو النفس.. جيء بها إلى الدنيا عبر الأصلاب لتُنْفَثَ نسمة فيما يكون قد تكوَّن في الأصلاب من منيٍّ جرَّاءَ ما كان من تراكمات مختزنة لعناصر الغذاء في جسم الإنسان والتي مصدرها جميعًا وأصلها يعود إلى الأرض بلا أدني ريبة أو شكّ أو جدال.. فالماء الذي نشربه من أصل الأرض، واللحم الذي نأكله من الأنعام أصله من الأرض (لأنها تتغذى على ما تنبته الأرض من مرعى وكلأ، وما تخرجه الأرض من ماء.. مصداق قول المولى ﷻ وقوله الحق:{أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾} [النازعات: ٣١] والأسماك أيضًا تستخرج من المياه - عذبة كانت أو ملحة - وكلها كما بينا سابقا من أصل الأرض، كما أن جميع أنواع الفاكهة والحَبّ من نبت الأرض{فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾} [عبس: ٢٤ - ٣٢].. فمن هذه العناصر الغذائية كلها، والتي يقوم عليها قوام الإنسان وحياته تتكون نواة بناء الأجسام التي تسكنها الأنفس.. ويصير

لكل نفس بيتها الذي هو من الأرض نشأ، وعليها ترعرع ونما..

وإني لأدعوك إلى النظر معي إلى هذه الحقيقة التي غاب الكثير عنها، أو هي غابت عن الكثير في خضم الحياة ولهوها لأهلها!!.. فالطعام هو أساس النسل والتناسل.. إذ هو الغذاء اللازم للحياة.. وبه تـُثار شهوة الجماع الذي هو المحرك الأساسي المباشر لإخراج المنيِّ الذي يتكوَّن ويتراكم في الأصلاب بفعل الغذاء الذي يتناوله الإنسان من نتاج الأرض؛ ولولاه ما تولدت شهوة، ولا كان للنكاح من ضرورة ولا لزوم!!.. وها هي الحكمة - نراها ناطقة جليَّة - في نصيحة رسول الله ﷺ للشباب بالصوم لقتل الشهوة؛ إذا لم يتيسر لهم أو يتوفر لديهم ما ينفقونه على أمر الزواج.. يقول ﷺ: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة [أي من كان عنده القدرة على النفقات الضرورية للزواج من مهر وإعداد المأوى وخلافه] فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء (أي وقاية).. [لأن الصوم معناه الإقلال من الطعام الذي هو السبب في تكوين وتراكم المنيّ بالأصلاب.. وهذا الحال يُمثـِّل العامل الرئيس المحرك للشهوة والدافع إليها]!!..

والموت بهذا المعنى ما هو إلاّ عودة ما كان من الأرض إلى الأرض.. أما النفس فهي التي يتم إخراجها من الجسد الذي كانت تسكنه.. وتعود - في طريقها - إلى حيث منشئها الأصلي.. وصدق الله ﷻ{وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: ٩٣]..{وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾} [ق: ٢١]..{وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾} [الانفطار: ٤ - ٥]..{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ

يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾} [الانفطار: ١٩]..{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾} [الشمس: ٧ - ٨]..{ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: ٤٢]، والآيات الذاكرة للنفس وأصنافها وأحوالها في الدنيا والآخرة في كتاب الله ﷻ كثيرة الورود؛ وإنما ما ذكرناه هنا ما هو إلاّ للاسترشاد والتوثيق لما فيه الضرورة واللزوم لموضوع البحث الذي بين أيدينا.. ولله ﷻ الفضل والمِنة من قبل ومن بعد..

أما عن الأجسام التي من الأرض كانت نشأتها، وجُعلت للأنفس بيتا يأويها إلى حين أجلها فتكفينا هذه الآية العظيمة (وقرآن ربنا كله عظيم):{أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا } [المرسلات: ٢٥ - ٢٦].. فالأرض كِفاتٌ لنا.. تنشأ منها مباني الأجسام " التي هي مساكن الأنفس " التي كتب لها الظهور للحياة.. وتعود إليها مباني الأجسام التي قضى أجل ساكنيها من الأنفس بالموت.. فالأرض تتقلَّبُ إخراجا لأجسام أناس جاء دور بعث وإحياء أنفسها، وضمًّا لأجسام أناس حان موت أنفسها.. ويا سبحان الله!!.. ألم يصلك قول النبيّ ﷺ عن ضمَّة القبر التي لا ينجو منها أحد؟!!.. غير أنها تكون رحيمة في حنوٍّ للأتقياء، وشديدة على الطاغين من بني الإنسان!!..

فالجسد بدءًا كان للنفس بيتًا وسكنًا.. وحين الأجل تترك النَّفسُ سَكنَها وتخرج منه ذاهبة - في طريقها - إلى حيث كانت في بدء نشأتها في عالم الذر؛ الذي هو يوم الشهادة!!.. وهو اليوم المعروف بين علماء الدين بيوم " ألَسْتُ "..{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾} [الأعراف: ١٧٢]..

وهكذا تكون الرحلة كما شاهدنا!!.. من غيب (يمثل مواتًا بالفراق

بين النفس والجسد) بدءًا إلى حياة بالظهور الماديّ (حيث لا يتم الظهور إلاّ بسُكنى النَّفْس لهذا الجسد الماديّ المنتمي إلى مادة الأرض وطينها)..

* * *

عهدُ{ألسْتُ بِرَبِّكُمْ؟}

يا بنَ التراب – أصْل آدَمَ منْ أزَلْ – ::: حَتمًا غداً تحْت التراب تنـضَوي
عَجِّـلْ بعَـوْد للكتـابِ المـترَل ::: واحْفظ لعَهْد أضْحَى فيكَ مُترَوي
وَحِّـدْ إلهًـاً خَالقًـا مُتفـرِّدًا ::: والزَمْ صِرَاطاً مُسْتَقيمًا وَاسْـتَوي
وَأوْفي بعْهْد قـدْ قطعْـتَ للإلـه ::: شَاهدًا؛ حافظ على العَهْدالـسَّوي
تحْظى بقـرْب مـنْ إلـه مُـنعمٍ ::: والقلبُ منْ بَحْرِ العُلـوم يَرْتَـوي
تحْيَـا حَيـاةً لا مَمـاتَ بَعْـدَهَا ::: إيَّـاكَ فيهـا نـورُ رَبي يحْتـوي
أَوْصلْ حَياتَكَ بالْمَمَات الْمُرْتَقَـبْ ::: تلقَ المَمَـاتَ في الحَيـاة يَنـضَوي
لا فرْقَ فيكَ بيْنَ دُنيا قـدْ فنـتْ ::: أوْ أُخرَى دَامتْ.. للنعيم تحْتـوي
إنْ متَّ يَوْمًا بَيْنَ أَهْـلِ العاجلـةْ ::: فالنفسُ تحْيا.. بالْخُشُوعِ تَرْتـوي
وَطِّنْ على الذِّكْرِالدَّءوبِ قلبَـكَ ::: لا يَأت يَـوْمٌ باللـهيبِ تكْتـوي

وهنا يكون قد حان الحين لولوج باب الموت المرتقب؛ لنتلمس معًا بعضَ أسراره ومخبئات أحواله.. فهيا بنا إلى ساحة ومضمار هذا الغائب الحاضر.. بل المُغَيَّبْ عن أفكار الناس.. والخالية منه أذهانهم.. رغم مشاهدتهم المستمرة له عبر أعينهم.. وملامستهم لظاهره فيما يشيعون على الدوام من موتاهم..

هيا لنمتطي سويا خيل هذه المخاطرة الملفعة بالجرأة والمتوجة بالشجاعة، ونخوض معا هذه المغامرة المثيرة!!..

* * *

آية الموت وأسرارها
وخوارق إعجازاتها

وللدخول إلى هذا العالم المتفرد؛ تلمُّسًا لبعض أسراره، وما يكتنفه من إعجاز.. لا بدَّ لنا من وضع المحددات التعريفية الدقيقة (على قدر ما يفتح الله ﷻ لنا من فضل علمه) لمصطلحات كل من الموت والحياة من جانب.. والروح والنفس من جانب آخر؛ لنكون على بينة وبصيرة تامة من هذا الأمر المعجز قبل اقتحام عالمه المثير؛ في محاولةٍ لكشف ما يكتنفنا من أمره من حيرة وغموض.. وإليك ماهية كل من هذه الحالات وكنهها:

أولاً: الموت والحياة:

حالتان ذات علاقة طرديَّة تمثلها عملية الفصل بالفراق والانفصال، أوالمزج بالتزاوج والاتصال بين عنصرين يؤثر كل منهما في الآخر افتراقًا واجتماعًا.. وهي في حالتنا هذه تمثل العلاقة الجدلية بين الروح والجسد منشأً ومصيرا.. فآدم (أبو البشر) عليه السلام سُوِّيَ من طين الأرض.. وكان مواتًا.. ولم تدب فيه الحياة إلاَّ بعد النفخ فيه من روح الله ﷻ.. فصار حيًّا بعد النفخة!!.. وهذا هو الإشكال الذي وقع فيه إبليس عليه اللعنة.. إذ إنه لم يؤمر بالسجود لآدم مع الملائكة وهو طين صِرْف؛ ولكنَّ الأمر بالسجود له عليه السلام كان بعد استقرار النفخة من روح الله ﷻ فيه؛ تقديسًا لما سكنه من روح القدوس ﷻ وامتزاجها بطينته عليه السلام {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾} [ص: ٧١ - ٧٢].. فآدم كان مواتًا قبل النفخة التي كانت سببًا في جعله من الأحياء بعد وُلوجها فيه!!.. فهو قبل النفخة كان خلقًا مواتًا وبعد النفخة صار خلقًا حياة!!.. فالموت والحياة مخلوقان من مخلوقات

اللهﷻ..{تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ} [الملك: ١ - ٢]..

{كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٨} [البقرة: ٢٨]..

ثُمَّ يأتي الموت بعد ذلك مرة أخرى بعد انقضاء الأجل؛ معلنًا فراقًا من نوع آخر يناسب مرحلته المتأخرة؛ على غير البداية التي كانت في النشأة الأولى (حيث تُحوَّلُ الروحُ في تطور معجز بما تأثرت به مما خالطها من حال وعمل إلى ما يسمى بالنفس) كما سنعرض له بالتوضيح التالي إن شاء الله ﷻ وبتوفيقه..

ثانيا: الروح والنفس:

فالروح كما علمنا تمثل البضعة التي تكرَّم اللهﷻ ببثِّها في المادة الطينية لآدم (عليه السلام).. فكانت سبب الحياة له ولذريته من بعده.. إذ إن كلاً مِنْ نسله (عليه السلام) فيه نصيبٌ من هذه النفخة.. بدءًا من أول ذرية له وحتى قيام الساعة؛ فإن في كلٍّ من خِلْقَتِهِ بضعة من هذه النفخة.. أما عن النفس فهي ذات النصيب من النفخة.. ولكن بعد تفاعلها بما كان صادرًا عن الجسد وحواسه من عمل، أو قول، أوحال، في هذه الحياة الدنيا.. فمنهم من دنَّسها بقبيح العمل أو القول أو الحال فينتج عنها ما يطلق عليها النفس الخبيثة.. ومنهم من خلط الطالح بالصالح من العمل، أو القول، أو الحال، وكان مدركًا لما يقع فيه من الخطأ؛ فكان يسارع بالتوبة نادمًا على ما كان منه من سوء صادر عن الجسد وحواسه فينتج عن تفاعلها الناتج عن هذه الممارسات ما يطلق عليه النفس اللوامة.. ومنهم من جدَّ واجتهد في فعل الخيرات والتفاعل معها بحواس جسده؛ سابقًا إلى الخيرات حالاً

وفعلاً.. ومسارعًا إلى عمل الصالحات فينتج عنها ما يطلق عليه النفس المطمئنة.. وإليك بيان هذا التصنيف للأنفس الثلاث من القرآن العظيم:

- فقد ورد في النفس المطمئنة (على سبيل المثال وليس الحصر) قوله تعالى:{يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾} [الفجر: ٢٧ - ٣٠]..

- كما ورد عن النفس النادمة اللوامة (على سبيل المثال أيضا وليس الحصر) قوله ﷻ:{لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ } [القيامة: ١ - ٢].. وقوله ﷻ:{ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ } [التوبة: ١٠٢].

- وأما عن أهل النفس الخبيثة فقد ورد (أيضا على سبيل المثال وليس الحصر) قوله تعالى:{ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾} [الأنفال: ٣٧]..

* * *

موت وميلاد

قدومُ الموْت ميلادُ ::: لكُلِّ الخلق ميقاتُ
إذا ما حان موعده ::: يَعُمُّ الجسمَ إخْباتُ
يُدَسُّ في ثرى القبرِ ::: وتحدُو النفسَ زفراتُ
إلى الْبَرْزَخِ تُشَيِّعُها ::: وقد هزَّها صحواتُ
إذ النَّفسُ لها شأنٌ ::: من الميلاد زَخاتُ
فذي بالخبْث قدْ كانت ::: لها في الدنيا جولاتُ
تدَسُّ في اللظىَ دَسا ::: من الزَّقوم تقتاتُ
وذي اللوَّامة زَجْرًا ::: لَها بالتوْب أناتُ
وفى الدنيا يصاحبها ::: من الآلام آهاتُ
وفى الموت ترى العفوَ.. ::: لها باللوْم جناتُ
ونفسٌ أُخرَى قد كانت ::: لها في الدنيا آياتُ
لفعل الخير قدْ جُبِلَت ::: به تَحْيا وتقتاتُ
ليوم البرزخ تسعى ::: لهَا نُورٌ وتثبيتُ
إذا ما حان موعدها ::: تُجَلِّي الْوَجْهَ بَسماتُ
تطمئنها ملائكة ::: لها بالفضل روْضاتُ
ميلاد النفس بالموْت ::: لها كشفٌ وإثباتُ
تعيش البرزخَ رَدحا ::: به بُشرَى.. وَتبْكيتُ [1]

والموت على هذه الصورة الواضحة لا يمثل نهاية مطاف.. ولا يحدوه شرٌ على إطلاقه.. إنما هو مرحلة من مراحل رحلة الإنسان؛ وطورٌ من أطوار تحوله؛ حيث هو إلى المحطة الوسطى في رحلته المقدرة سلفًا عبر حالة الموت - التي تمثل في تكوينه قمة (وأعلى)

(1) عند الموت من الدنيا تولد النفس في البرزخ مصنفة إلى ثلاث [النفس الخبيثة - النفس اللوامة - النفس المطمئنة] ولكلٍّ ما تناسبها من استقبال في الحياة البرزخية.
١- بشرى لأهل الجنة وتبكيت لأهل النار.

درجات الانفعال بين الجسد والنفس - سائرٌ؛ ليتم بينهما الفراق.. (إنها حالة الموت الفاعلة بفراق الجسد إلى حيث كان نبته ونشأته " الأرض ".. وفراق النفس إلى " عالم البرزخ " انتظارًا ليوم البعث، والنشور للحساب)..{ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].. حيث تلقى الله ﷻ راجعة إليه بصحبة سائق يسوقها، وشاهدٌ يشهد عليها من الملائكة الموكلين بها وبأمرها؛ حيث يُقدَّمُ عنها تقريرُ رحلتها إلى الحياة الدنيا التي كانت هي دار عملها؛ فتنتظر جزاء ما كان منها في رحلتها إن خيرًا فخيرٌ.. وإن شرًّا فشرٌّ.. وليس هناك يومئذ غير الجنة (دار الرحمة للأتقياء)، والنار(دار الشقاء للمذنبين) أعاذني الله وإياك منها.. اللهم آمين..

* * *

فضل الكريم

يارَبُّ تبْتُ إليْك منْ بَعْد عــصْياني ::: النفسُ عاشتْ هَواها والتوْبُ ناداني
يا مَنْ خلقتَ الْهَوَى وَالشَّيْطانَ والنفسَ ::: مَنْ لي سوَاكَ الذِّي إنْ أقصُدْهُ نَجَّاني
أنتَ الْمَلاذ.. وَذا حالي.. أنتَ تعْلمه ::: ما كُنتُ أُ بْدي جَهارًا أوْ باطنَ الشان
كُليِّ كتابٌ.. وَبا لْفصْحىَ أنْتَ قارئه ::: أبْدَعْتَ خلقي بأ ضداد الرُّوح والطين
ذا في الصَّفاء.. بَدا أحْوالاً وَأعمــالا ::: وَالسُّوءُ قدْ كان منْ نفسي شانَ منْ شاني
فاشْفَعْ إلهي كَثيفَ الأصْلِ الذِّي أُبدي ::: بالرُّوح وَالنور..إكْرامًا منكَ.. والاني
الْعُنصُران هُما.. منْ عُلو وَمنْ سُفل ::: أسرارُ خلْقي.. وهذا في أصْل تكْويني
وَالْفضْلُ منكَ.. جَعَلْتَ في أمريَ سعَة ::: لوْ كانَ توًّا..هَلكْتُ..وَالذ نبُ أرْدَاني
عُدْتُ إليْكَ فرَارًا يــا رَبِّ مُــشتاقا ::: بالْفَرْح تهْتُ.. فَصحْتُ:لي رَبُّ.. ربَّاني
أسْدَى ليَ الْعَفوَ فضلاً قدْ أثرَى أشْجاني ::: فَالْحَمْدُ حَقُّ الذي.. بالْفضلِ ذا والاني
منْ بَعْدِ لَهْو الْحياة..ما قدْ غزَى عُمْري ::: توْبُ الْكَريم أَتاني..منْ ذنبي نجَّــاني

* * *

حديث الموت

حــــديث المــــوت أيقظــــني ::: مــــنَ النــــوْم وأرَّقــــني
فمــــا نامــــت ليَ عَــــينٌ ::: وذكْــــرُ المَــــوْت يُــــرْعبني
وقــــبْضُ الــــنفس يُــــزْعجني ::: وَخــــوفُ الفــــتن يَــــسْكُنني
لَعــــينُ الخَلــــق.. إبلــــيسُ.. ::: أخــــافُ ذلَــــكَ الجــــني
لأن يَــــأتي مَــــعَ الــــسَّكرا ::: ت.. يَــــسْعَى جاهــــدًا مــــنى
يحــــاول أنْ يُغــــوِّيني ::: وعنــــد المــــوْت يَفتــــنني
ويَــــشغل مــــنىَ الْفكــــرَ.. ::: وَعَــــنْ مَــــولاىَ يَحْجــــبني
فليْــــسَت بَعْــــدها إلاَّ ::: نــــيران البُعْــــد تَحْــــرقني
وأُحْــــرَمُ جَنــــة الخلــــد ::: وَخَيْــــرَ الــــزاَّد والــــسَّكن
كمــــا أَغــــوَى أبانــــا.. بــــلْ ::: وأُمَّ النــــاس.. بــــالمحَن
فحَــــوَّاء، وبُوالبَــــشرِ ::: إذ انــــصاعا لــــذي الــــشطن

عـــن الفـــرد وْسِ قـــدْ قـــيلا ::: إلَى شـــطف مـــن الـــسَّكن
لـــسانُ الحـــالِ يَـــسْتدْعي ::: لـــىَ الإعْـــدَاد بـــالفطن
بَـــأذ كـــار.. وَقـــرآن ::: وَخيْـــر الْفعْـــل وَالـــسُّنن
ودَوْمًـــا بـــا لـــدُّعا.. وصْـــلاً ::: لـــرَبِّ العَـــرْ ش وَالْكـــوْن
لـــساني ذا.. أُرَطبـــــهُ ::: بـــذكْر الله.. ذي الْمَـــن
فيُلـــــهمُني.. إذا ماجـــــا ::: ء وَقـــتُ المَـــوْت وَالْفـــتن
بنطـــق طَيـــب الْقـــوْلِ ::: وَيَقـــبَلني عَلـــىَ رُكَـــن
بخـــتم الْعُمْـــر يُرْضِـــيني ::: يُـــنعِّمُني بـــذي عَـــدْن

وإليك آيات بينات جامعة شاملة موجزة في غير تقصير ولا إخلال، تعرض لنا مشاهد الموت وسكراته، وما يجري على المحتضر للموت كما الحضور من أهله وصحبه وعشيرته من حال.. وما يدور بهم من هواجس مقرونة بالعجز، وفقدان الحيلة، وتلعثم أدوات الفكر وجومًا، وما يعترى الألسن من وهن وحيرة تحجب عنها البوح عما يدور بخلد كل منهم من سؤال ملؤه العجب والذهول.. تقول لنا الآيات في تنبيه زاجر وتحذير قبل حلول الأجل.. لعل كلانا يثوب إلى جادة الطريق من قريب قبل فوات الأوان، وحلول سكرات الموت بنا على حين غفلة من أمرنا.. وساعتها لا تنفع توبة ولا يجدي رجاء:

{وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾} [ق: ١٩]..
وسكرة الموت هذه.. أخبرنا عنها الحبيب ﷺ من واقع معالجة نفسه الشريفة في موته.. فما بالنا بمن هو دونه من البشر؟!!.. يا سبحان الله.. فقد كان يغيب عن الحضور ثم تعتريه صحوة ليقول فيها لمن حوله.. سبحان الله.. إن للموت لسكرات!!.. ويصور لنا القرآن تفاصيل الوداع في إيجاز وتبيان هذا الحال فيقول:{فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ

ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ } [الواقعة: ٨٣ - ٩٦]..

تنقل لنا الآيات في إيجاز واع غير مخل ولا مقل مشاهد الموت بدءًا مما يعتري المحتضر من سكرات حين تبلغ نفسه الحلقوم في طريقها إلى مغادرة بنيان جسمه الطيني إلى عالم البرزخ؛ ذاهبة دون رجعة إلى يوم الدين حيث البعث للحساب، والنشور بأرض العرض والمعاد، بين يدي العزيز القهار ﷻ.. فنراها وقد أوجزت في إيضاح دقيق غير ممل، ولا يعتريه من خلل أو تقصير.. وكيف لا، والمخبر هو العَلِيُّ الكبير المتعال ﷻ؟!!.. توجه الآيات هذا الخبر في أسلوب خبري معجز مباشر، في عمومية من التنبيه لجميع الخلق؛ تدق ناقوس الإنذار.. داعية الجميع إلى ترك لهو الدنيا وغرورها، والاستعداد للقاء الموت قبل ساعة اللقاء{قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾} [الجمعة: ٨].. لعل من آمن يزداد إيمانا؛ ويجدُّ في العمل مشمرًا عن الساعد والساق طلبًا للدرجات العلا من الجنات، لعله يكون ممن سبقت لهم الحسنى فيكون من المقربين يوم البعث العظيم؟!!.. ولعل العصاة يكفون عن المعاصي هجرانًا، عن طواعية وصدق توبة إلى الله رب العالمين؛ فيتطهرون مما كانوا عليه من سوء مسلك، واستعذاب الذنوب وارتكاب المعاصي، ولعلهم يكونون ممن يبدل الله ﷻ سيئاتهم حسنات بما انتصحوا في توبتهم عودًا إلى

الصراط المستقيم.. مصداقًا لوعده ﷻ لهم - ووعده الحق - في قوله ﷻ:{ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾} [الفرقان: ٧٠].. فيكونون ممن خصهم الله ﷻ بجزيل العطاء يوم الدين!!.. ولعل من تجبر وتكبر وطغى ممن اتخذ هواه إلاهًا - كفرًا أو فسوقًا أو إشراكًا بالله ﷻ - يتبصر من أمره؛ ويأخذ بزمام نفسه عائدًا أدراجه حافدًا إلى جناب مولاه لائذًا به، منتظمًا مع أهل الإيمان؛ فيلقَ ربه ﷻ في أمان.. فينجو من سخطه، ويفوز برضاه.. فهل من مجيب.. يشري نفسه من عذاب النار.. وينعم بها في جنات النعيم؟!!..

* * *

العز في التوبة

وَجَـــدْتُ العـــزَّ في العـــوْدْ ::: إلىَ الــــرَّحْمنِ مــــنْ قـــرْبِ

وقلـــــتُ: إنــــــي بــــــشرٌ ::: وَذ نـــبُ الجَهْــــلِ.. ذا عَــــيْبِي

وَ إبلـــــيسُ.. لـــــهُ حيـــــلٌ ::: تعُـــوقُ الوَصْـــلَ في الـــدَّرْبِ

وَ كُنَـــــتُ ذاكـــرًا عَهـــدي ::: مَــــعَ الــــرَّحْمنِ في قلـــبي

وفي خـــــوْفي مِــــنَ الزَّلـــــلِ ::: قبَــــضْتُ الجَمْــــرَمنْ لهَـــب

وكَــــمْ جاهَــــدْتُ مُــــسْتعْصٍ ::: عَلـــــىَ إبْلــــــيسَ في دَأبِ

وَأبْــصرْتُ هــذي الــدُّ نيــاً ::: سَــــرَابَ اللــــهْوِ وَاللعــــب

فكُـــــلُّ مـــا بهـــا زَيـــفٌ ::: بهـــا يَــــسْعَى إلىَ الجَـــدْبِ

وَحَـــذَّرْتُ – الْهَـــوَى – نفـــسي ::: صَــــبَغتُ العُمْــــرَ بالـــشيْبِ

وَخفــتُ الْمَــوْتَ مِــن قــرْبٍ ::: وَسُــــؤْلاً لي مِــــنَ الــــرَّبِّ

وَإهْــــدارَ ســــنِىَ العُمْــــرِ ::: هَبــــــاءً دُوْنَ مُكْتَـــــسَبِ

ومـــا للــــشَّيْبِ إنْ جـــاءَ ::: سِـــوَى سِـــجْنٌ مِـــنَ العُتْـــبِ[1]

وإني مـــــا أرَى المـــــوْتَ ::: ســــــوَى آتٍ ومُرْتقَـــــبِ

أراهُ يَحْـــدُو بــالأ جَــلِ ::: وَيرْنـــو إلَـــيَّ مِـــنْ قـــرْبِ

وبـــاقي العُمْـــرِ لا يَكْفـــي ::: وَإنْ دَمْعــــي اعْتلَــــى هَـــدبي

فمـــا حَـــصَّلتُ مِـــنْ خـــيرٍ ::: ولا ارْتحْـــتُ مِـــنَ اللَّغَـــبِ[2]

فعــــشتُ العُمْــــرَ في وَجَــلٍ ::: أخَــافُ الــسَّقْطَ في الــذ نــبِ

وَبــــتُّ تائبًـــا أرْجــــو ::: قبُـــولَ التـــوْبِ مِـــنْ رَبي

يَقنــــتُ العَفــــوَ مِــــنْ رَبي ::: وَرِضْــــوانا مِــــنَ القـــرْبِ

بتَـــذ كـــيرٍ لمـــا قـــالُ ::: نَــــــبيُّ اللهِ في الكـــــرْبِ

جَميــــعُ الإ نــــسِ خَطـــاءُ ::: وَكُـــــلُّ الخيْــــرِ في التـــوْبِ

وَكَانـــتْ تـــوْبَتي صِـــدْقا ::: وَكَــــانَ النُّــــصْحُ في أوْبي

(1) العتب = اللوم.

(2) اللغب = التعب.

وَ وَعْــــــــدُ الله مــــــــنْ أزَلِ ::: سَــــيَرْحَمُ تــــارِكَ الـــذ نـــبِ
فــــشكْرًا رَبي مَــــنْ قلـــبٍ ::: مــــنَ الأعْمــــاقِ مُــــضْطَرِبَ
رَجــــاءً منـــكَ في عفـــوٍ ::: وَأَ مَــــلاً فيـــكَ لَمْ يَغــــبِ

* * *

وهكذا تذكّرُ الآيات جميع الخلق منبهة إياهم في دويٍّ صارخ، لتحملهم به على السعي إنقاذا لأنفسهم من الضياع والهلاك، داعية إياهم عبر بيان ما سبق من آيات بولوج باب الأمن بالإيمان.. حرصًا عليهم للنجاة من عذاب الجحيم، وحثًّا لهم على السعي للتحصيل من الخير المزيد من خزائن مسبغ النعم الظاهرة والباطنة على جميع خلقه من غير استحقاق لهم ومن غير أن يطلبون.. فسبحان من لا تنفذ خزائنه ولا تغيض!!..

فنجد الآيات بعد أن نبهتنا جميعًا إلى إعجاز النشأة والإيجاد وما صاحبه من عظيم الأسرار.. إحياءً لنا من موات.. وإيجادًا لنا من عدم؛ خلقًا من بعد خلق، ثم الإشارة إلى خلق مستلزمات حياتنا من طعام زرعًا وإنباتًا من بعد حرث، وسُقيا رواءً لأنفسنا وأنعامنا، فضلاً عن نبت الأرض من جميع الزرع عذبًا فراتًا مستخرجًا من ماء البحار والمحيطات المالح المر بإعجاز ودقة تحير العقول والأفهام، وتوليد النار إيقادًا من خلال أغصان الشجر وفروعه اللدنة الخضراء.. وكلها مخلوقات تصرخ صباح مساء بآياتها المدوية دون سامع أو مجيب.. فنحن نحيا بها ونقتات.. منها غذاؤنا.. ومنها شرابنا.. ومنها ترفنا وترفهنا طهيا ومشروبًا وتدفئة.. كلها آيات تجاورنا في حواضر مُقامنا ومُستقرّنا - إنها وسائلٌ هامة ولازمة لأود حياتنا التي لابد لنا منها - ولولاها ما كانت الحياة تدوم.. ولكن الآيات تعود لتنبهنا إلى عدم دوام هذا النعيم.. إذ لابد أننا لكل ما نحن

ننعم به من ترف ونعيم مفارقون، ولهذه الحياة الدنيا مغادرون - كما غادرها من جيء به قبلنا - إلى عالَم غيبيٍّ آخر نحن عنه غافلون.. وعن الاستعداد له لاهون.. إنه عالم البرزخ الذي نحن جميعًا عند بلوغ الأجل إليه ذاهبون.. وفيه ماكثون إلى يوم البعث للعرض على الله رب العالمين ﷻ..

وتدخل بنا الآيات في سلاسة وهدوء بوابة الموت التي تعني غيابنا عن الحياة الدنيا التي تعودناها.. بما يقابلها من ميلاد جديد لنا، وحضور في عالم آخر كان مُغَيَّبًا عنا هنا ولا نشاهده، ولا نعلم كنهه إلاَّ ونحن في سكرات الموت مغمورون.. نشاهد الحقيقة في الوقت الذي تكون فيه ألسنتنا قد أُلْجِمَت عن النطق والكلام؛ فلا نستطيع البوح لمن حولنا بما نراه من مشاهد هي عليهم من أسرار الغيب.. وقويت أبصارنا وزادت حِدَّة فرأت مالا يسمح لمن على البسيطة غيرنا حين موتنا أن يراه.. وسبحان الله المحيي المميت!!.. الذي هو على كل شيء قدير!!..

تخاطب الآيات الجمع الحضور الذين هم حول المحتضر للموت، المسجى أمامهم ملتفون؛ واعظة إياهم بعظة الموت؛ لعل الجميع قبل حلول ساعتهم ولقائهم به يثوبون، وبالإيمان بربهم يسارعون، وبالتوب إليه يسارعون.. فها هى تكشف لهم عن بعض أسرار ما يشاهدونه مما غيب عنهم من حال احتضار ميتهم، وهو في استسلامه لرسل رب العالمين حيث يستلُّون نفسَه من جسمه وهم إليه ينظرون!!.. فتخاطب الحاضرين بقولها: هلاَّ تدركون الآن آية الموت هذه الواقعة أمامكم في جلاء ووضوح.. وتحدٍّ لكم في بيان صريح.. إن آية الموت هذه التي تشاهدونها واقعة فيكم حال حضوركم.. هي بينكم تصول وتجول في كل حين.. تسلبكم من

عشائركم كل عزيز، ومن ذويكم كل قريب وحبيب، ومن الصحاب كل خليل ونديم؟!!.. إن هذا الذي تشاهدون موته أمام أنظاركم، يؤكد لكم هو ومن سبقه في هذا الحال والمصير ينبهكم إلى أنكم - بكل يقين - مثله ومثلهم ميتون، وأنكم ستعانون منازعتهم هذه وما يتعالجون.. فهلاً ذكرتم حال الميت هذا ونفسه في نزعها قد بلغت منه الحلقوم، ويتولى معالجتها في السكرات رسل رب العالمين، وهم في ذلك لا يمهلون ولا يقصرون، وأنتم في جمعكم هذا حوله ترقبون.. وإليه تجيلون أنظاركم في حسرة مودعينه إلى ما لا تعلمون؟!!.. إنه الآن أمامكم لا يشغله شيئا من أمركم.. فهو عنده من الحال والمعاناة ما يشغله عنكم.. إنه رأى ما لا ترون.. فأصبح عنكم معرضًا، ولحياتكم الدنيا وصحبتكم مفارقًا، ذاهبًا بنفسه إلى حيث كان مبدأها ونشأتها بيقين المتيقن، فهو لدار الحق معاينًا.. في حين أنكم لظاهر حاله أمامكم تعاينون.. وتظنون أنكم إلى حقيق حاله مبصرون، وبأنظاركم به شاخصون؛ ولا تدرون كم هو يعاني في مكابدة أهوال خروج نفسه من آلام وأنين؛ وأنتم من أمره عاجزون.. ولا للتخفيف من معاناته أبدًا أي وسيلة تملكون، ولا أنتم لما هو واقع به من معاناة عالمون أو مدركون.. في حين أننا أقرب إليه منكم علمًا بما يعاني وبما يجري عليه من الأمر محيطون، ولما هو واقعٌ به مما خفي عليكم كاشفون، وبمصيره الذي يؤول إليه عالمون؛ وأنتم عن كل ما يتعلق به من خفايا وأسرار لا تعلمون - هو لها شاهدٌ - تجهلون..

إنكم لا تدركون بأبصاركم هذه ما أحاط به من ملائكتنا المكلفين بقبض نفسه وإخراجها من جسده هذا المسجى أمامكم، وبحواسكم التي زودناكم بها لا تشعرون بهم ولا تحسُّون.. أفلا يكون هذا الذي

أنتم فيه من حال يدفعكم إلى التفكر في مدى ضعفكم وعجزكم، فتثوبون إلى رشدكم وتتعظون؟!!.. ولمثل ما تجدونه عليه من معاناة وشدة - لا بد طائلتكم يومًا - لأنفسكم تستعدُّون؟!!.. فإذا كنتم تظنون أنكم غير ميتين، أو غير معرَّضين للحساب على ما كان منكم من سيئ أعمالكم وفساد ضمائركم في هذه الحياة الدنيا، وضلال عقيدتكم الخربة التي إياها تزعمون.. فامنعوا نفس هذا العزيز لديكم المسجى أمامكم من الخروج، أو إن كانت بكم استطاعة فارجعوها إلى جسده، وامنعوا عنه الموت إن كنتم صادقين!!.. إنه حتى في رقدته وقبل منازعته هذه كان منكم القريب، وإلى قلوبكم الحبيب، وكنتم إياه بالأمس القريب في منتدياتكم ولهوكم تسامرون.. وها أنتم الآن تتطلعون إليه وتودون بقاءه بينكم ولحياته معكم ترجون، ولفراقه وبعده عنكم تكرهون.. والأمر بكم هكذا فامنعوا نفسه من الخروج من جسده وردوها إليه.. إنها لازالت بعد في حلقومه وإياها في نزعها تسمعون.. فهي قريبة المنال من أيديكم!!.. أفلا تستطيعون؟!!.. فإن أدركتم بيان ضعفكم، وتيقنتم تمام عجزكم أمام ما ندعوكم إليه من أمر هذا الحال الذي تشاهدون وتعاينون؛ فاعلموا بأن الأمر هذا كله جميعًا بيد من هو الأقدر عليه منكم.. وهو القادر عليكم كما قدر عليه، وأنتم أمام طلاقة قدرته عاجزون.. وسيأتي اليوم الذي يصير فيه حالكم إلى مثل ما عليه حال هذا المسجى أمامكم فلا تنقذون ولا من الموت تفلتون!!.. وكما ترونه يلاقي ما يلاقي أمامكم فسوف مثله تلقون.. ومثل ما يجد مِن سكرات الموت وأهواله نزعه فيه سوف تجدون!!.. إن القادرعلى هذا كله هو الله الحيُّ القيوم، المحيي المميت، القويُّ المتين، القدير العزيز ﷻ.. فآمنوا به خيرًا لكم إن كنتم تعقلون.. واتركوا ما أنتم عليه من ضلال

فكر، وفساد عقيدة، وعناد أثيم.. وما أنتم فيه من كبرياء وعتو وجهالة وغواية تخوضون!!..

ما سبق كان خطابًا لمن يحوطون بالميت من أحياء هم لحاله يرقبون ولظاهر أمره ينظرون.. أما عن حال الميت المسجى بين أيديهم، والذي هم عن إنقاذه من الموت عاجزون؛ تخبرهم الآيات بما يشاهده هو ويعاينه من أمر نفسه؛ شهادة حق ويقين فتخبرهم وإيانا ببعض ما يلاقي ويبشر به مما هم عن أمره جاهلون، ومما يشاهد ه من مشاهد بينة هم عنها مغيبون فتقول:

إنَّ هذا الميت الذي بين أيديكم إنْ كان ممن أحسن في دنياه، وكان يسعى إلى الخير، ويتنافس مع الصالحين؛ متسابقًا في مضمار الأعمال الصالحة تقربًا إلى الله ﷻ وطموحًا إلى غرفات الجنات، وطمعًا في درجاتها العليا؛ حبًّا لله ﷻ وشوقًا إليه سبحانه.. فيُبَشَّرُ عبر ملائكة الرحمن الذين يعالجون إخراج نفسه من جسده بما أعد ه الله ﷻ له من خير ينسيه ما كان فيه من عناء في الدنيا، وما وقع عليه فيها من جهد وشقاء ومجاهدة ومعاناة.. وهو إذ يُقبَرُ يجد القبر طيِّبَ النسيم، مريح المهاد.. فينزل فيه منزل المكرمين إلى يوم الدين.. إذ يوم البعث يجد ما كان قد بُشِّرَ به في الحياة الدنيا من مخبوء الرزق الحسن في جنات النعيم مع المتقين الذين جعل الله ﷻ لهم الفردوس الأعلى سكنًا مستظلين بأشرف سقف ألا وهو عرش الرحمن ﷻ.. وهم المقصودون بقوله ﷻ{إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾} [القمر: ٥٤ - ٥٥] حيث يجد فيها [ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر] كما أخبرنا سيد الخلق ﷺ.. فهو يتنعم فيها بغير حساب..

وأما إن كان هذا المسجى الذي يكافح سكرات الموت بين أيديكم وتحت أعينكم ممن كان يؤدي ما أتمر به من حلائل الشرع وينتهي عما نهاه عنه الله ﷻ.. وما كان ليزيد عنها أو يجتهد فهو من أصحاب اليمين الذين قال فيهم الحبيب ﷺ [وحِّدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وصوموا شهركم، واحفظوا فروجكم؛ تدخلوا جنة ربكم] أو كما قال ﷺ.. وهذا الذي يتعالج الموت بسكراته يكون ممن تبشره ملائكة الموت - مسرية عنه ما يجد من معاناة - بتيمنه كتابه يوم القيامة؛ حيث يكون مأواه جنات النعيم.. فيكون ممن مكنهم الله ﷻ يمين عرشه يوم العرض؛ بشرى رضاه ﷻ عنهم.. في من كُتبت لهم السعادة عند ربهم.. سكناه الجنة؛ تحدوه السعادة الأبدية ويعمه النعيم السرمدي في دار المقام المقيم.. إذ بشراه بذلك حال إخراج نفْسِه وقبضها تنزل منه منزل السلام من رب العالمين.. إذ يبشره بذلك ملك الموت بإشراقة وجهه الباسم مبلغًا إياه السلام من ربه السلام ﷻ.. وما أن يودع قبره حتى يبادره ملَكَا السؤال في القبر (منكر ونكير) بالسلام.. كما أنه عند بعثه من الموت يوم القيامة تبادره أيضا ملا ئكة الرحمن بالسلام..

وأما إن كان هذا الذي يعايش الموت من المكذبين المنكرين للبعث، المتخبطين في دياجير الظلمة والضلال فإنه يخوض غمرات الموت وصراعاته في شدة غير معلنة للحضور من حوله، وقسوة لا يقدر وقعها إلاَّ هو.. وما يبشر به من نـُزُل إثـْر مغادرة نفسه لهذه الحياة الدنيا ومفارقة جسده إلاَّ تجرع الحميم الذي تنصهر منه بطنه وتتقطع من أثَره أمعاءه لشدة ما يجد من حرارة حارقة، وما يتذوق منه من مرارة لاذعة؛ يوم القيامة حيث يكون البعث الذي كان به يكذب وكان له من المنكرين.. فتصليه نار جهنم يتخبط في دركاتها من سيئ إلى

أسوء إذ فيها يتكبكب مع من هم كانوا على شاكلته إذ هم بصحبته إياها وفيها داخلون!!..

* * *

رحلة الموت

جــــاءني المَـــــوْتُ مـــــرارا ::: حـــــتى أنــــساني وُجُــــودي
فانــــشَغلتُ عـــــنْ حَيـــاتي ::: زُهْـــــدُها صَـــارَ مـــــرادي
وامْتزَجْــــــــتُ بالَمــــــات ::: حَيْــــثُ لـــــحْدي وَرُقــــودي
إذ أتـــــــاني أمْـــــــرُ رَبي ::: يَعْتلـــــي صَـــدْري وَجيـــــدي
يُخــــرِجُ الـــنفسَ برفـــــق ::: أوْعِــــلاج – بي – جَهيــــــد
قـــدْ سُـــلبْتُ كُـــلَّ شـــيْءٍ ::: صُـــحْبَتي.. مــالي.. وَليـــدي
حـــتى ثـــوْبي قـــدْ أُزيـــلَ ::: جَـــــــرَّدُوني كَالوَليــــــد
ثمَّ جُثمـــــــاني يُـــــسَجى ::: مُبْــــسَطا بَـــيْنَ الأيــــادي
قلبُــــوني كَيْـــــفَ شَــــاءوا ::: في سُـــــكُوني.. وَجُمُــــودي
وَضَّـــــأُوني.. غـــــسَّلوني ::: في رثـــاء مـــــنْ شُــــهُودي
لا اعْتِـــراضٌ مِـــني يَبْـــدُو ::: أوْ رُجُـــوعٌ مِـــنْ جَديـــد
كَفنُـــــــــــوني في رِداء ::: ثبتــــــوه بـــــــالقيودَ
ثمَّ صَـــــــلوا تكْــــبيراتً ::: وَاقفــــونَ في صُـــــمُودَ
لا رُكُـــوعٌ.. لا سُــجُودٌ ::: .. بَـــلْ دُعـــاءٌ باجْتهـــادَ
ســــــــــائلُون اللهَ رَبي ::: رَحْمَـــةً عنـــدَ انقيـــادي
يَغفــــرَنْ ذنـــبي وَيَجْعَـــلْ ::: رَوْضَــــــه دار خلـــــودي
ثمَّ جَمْعـــا شـــيَّعُوني ::: في سُــــكُون.. وَاتئـــادَ
قـــدْ حُملـــتُ في هُـــدُوء ::: فـــوْقَ أَكْتـــاف وليـــديَ
أوْدَعُـــوني جَـــوْفَ قبْـــريً ::: في انتظـــارِ.. في قُيُـــودي
قـــدْ تـــداعَى كُـــلُّ أمْـــري ::: في الحَيـــاة مـــنْ جَديـــدَ
بعـــد مـــا الجَمْـــعُ جفـــاني ::: بعْـــد دَفـــني.. وانفِـــرادي

أهْلُ بَيْتي.. أصْدقائي ::: .. كُلُّ أَصْلي.. وَامْتدادي

مَنْ هُمْ أَجْهَدْتُ نفسي ::: ساعيا في كُلِّ وَادي

مُنذ كُنتُ أسْعَى حُرًّا ::: حَتىَّ دَفْني وَالتحادي

أَسْمَعُ وَقْعَ خُطاهُمْ ::: في انْصرَاف مِنْ بَعيد

ما بَقيَ عِندي أنيسٌ ::: في احْتباسيً.. وَرُقُودي

غيْرُ أعْمال حِسان ::: قدْ تكُونُ خيرُ زاد

أوْ ذنوب.. إقْترَفتُ ::: في خفاء.. أوْ شهُود

ثمَّ أُسْأل عَنْ فعالي ::: عنْ كَلاميً وَاعْتقادي

فاجْعَل اللهُمَّ رَبي ::: شافعي صِدْقَ اعْتقادي

قدْوَتي فيكَ حَبيبي ::: مَنْ بَعَثْتَ للوُجُود

رَحْمَة منكَ.. تجَلى ::: إذ أبانَ لي حُدودي

فاتبَعْتُ منكَ فضْلا ::: سُنةَ الهادي.. مُرَادي

قدْ أفقتُ اليَوْمَ وَحْدي ::: حَيْثُ أُسْأَلُ عَنْ عُهُودي

فيكَ أخلصْتُ إيماني ::: وَدُعائي.. وَاعْتمادي

أَرْجُو رَبيِّ منكَ عَوْنا ::: تلهمَنْ خيرَ الرُّدُود

حَتىَّ أَغْدُو في أمانٍ ::: أَزْهُو بالعَوْد الحَميد

وهكذا يتبين لنا ختام رحلة كل إنسان جيء به إلى هذه الدنيا متقلبًا في أطواره بدءًا بنشأته وانتهاءً بموته حيث ميلاده الجديد في عالم آخر أرحب من عالم الدنيا التي يغادرها انتظارًا لآخر طور وأهم مرحلة حيث الدوام إما في سعادة دائمة أو شقاء.. وهذا يظهر له بكل جلاء عند مغادرته الحياة الدنيا من بوابة الموت إلى عالم البرزخ إذ يبشر كُلٌّ بما يناسبه من منزلة تنتظر قدومه إليها حسب ما يليق به من تصنيف لما كان عليه في دنياه من العمل والحال.. وما كان ينتمي إليه من الفرق التي تقدم ذكرها بالتفصيل (السابقون - أصحاب اليمين - أصحاب الشمال).. حيث يكون الجميع قد عاينوا الحقيقة وأيقنوها حق

اليقين.. فالله ﷻ ليس بتاركٍ أحدًا من بني الإنسان حتى يُقِرَّهُ على اليقين القاطع من حقيقة القرآن العظيم المقسوم عليه من اللهﷻ بمواقع النجوم.. وهو مما لا شك فيه أنه قسم عظيم لائق بعظمة القرآن سموًّا وعلوًّا وارتفاعًا.. هذا القسم المتوافق مبنى ومعنى مع عظمة المقسوم عليه من حيث اشتراك المقسوم به والمقسوم له في خاصية الهداية.. إذ أن النجوم - كما سبق أن بينا آنفًا - خصها الله ﷻ بالهداية الحسية حيث يهتدي بها الناس في ظلمات الليل (وهي من الآيات المنظورة).. والقرآن العظيم خصه الله ﷻ بالهداية المعنوية حيث يهتدي به الناس في ظلمات الجهالة والضلال (وهو من الآيات المسطورة).. ولما كان المؤمنون قد أيقنوا هذه الحقيقة في دنياهم قبل الموت؛ فقد نفعهم الله ﷻ باهتدائهم إليه تصديقًا وإيمانًا في الآخرة.. وأمَّا من عاند وتكبر في الدنيا وتمادى في تكذيبه الذي أدى به إلى الكفر (والعياذ بالله) فقد عاين هذه الحقيقة وأيقنها في الآخرة بعد الموت؛ حيث لا ينفع إيمان ولا يجدي تصديق!!.. فبقيام الساعة يكون جميع الناس قد صدقوا وآمنوا عن يقين.. ولكن شتان بين من آمن بالغيب في دنياه وأيقن قبل معاينته للحقيقة حين احتضاره للموت وبين من آمن وأيقن حقًّا بعد الموت، وبعد البعث.. وهذا هو الفارق الوحيد والخطير الذي فرقَ بين أهل الجنة وأهل النار.. فمن آمن قبل الموت كانوا هم أصحاب الفردوس الأعلى من الجنة (فرقة السابقين)، وأصحاب عموم الجنات دون الفردوس الأعلى (فرقة أصحاب اليمين) من جهة.. بين أصحاب النار، أهل الضلال والخسران المبين (أصحاب الشمال) الذين أيقنوا هذه الحقيقة مشاهدة عيانا مع معاناتهم نزاع الموت ومكابدتهم سكراته وقد فات أوان التصديق في دنياهم ببلوغ أنفسهم الحلقوم.. فقد فات وقت التصديق ومضى؛ حيث لا ينفع معه إقرارٌ بإيمان أو تصديقٌ

بيقين.. وهذا هو الحق الثابت بلا ريب، وهو حق اليقين الذي لا مجال لإنكاره.. فيا سبحان الله رب العالمين.. ويا سبحان الله العظيم!!..

* * *

اللـهُ يَـهدي من يشاء

ســـبحانك منـــكَ الهـــدَى	:::	لا يُهْتَـــــــدَى إلاَّ بـــــــكَ
مَـــنْ قـــدْ هَـــدَيتَ يُهْتَـــدَى	:::	حيْـــث انْبعـــاثُ نُـــوركَ
يـــا مَـــنْ هَـــدَيتَ مـــنْ ضَـــلا	:::	ل.. اهْـــــدِ ربِّـــــي عَبْـــــدَكَ
واحْيـــــي الفـــــؤادَ بالهُـــــدَى	:::	كَـــــيْ يَـــــسْتبينَ دربَـــــكَ
البـــائعُ والـــشاري أنـــتَ	:::	والـــسِّلعَة ملـــكٌ لـــكَ
يـــا مَالكـــا للمُلـــك مـــنْ	:::	قبْـــلِ انبعـــاث مُلكـــكَ
للـــرُّوح أنـــتَ المالَـــكُ	:::	وَالجـــسْمُ أيْـــضًا ملكُـــكَ
أَهْـــلُ الـــضَّلال كلـــهمْ	:::	وَالمُهتـــــدُونَ صُـــــنعُكَ
وَالجـــنُّ وَالإنـــسُ جَميـــعٌ..	:::	والمَلائـــــكُ خلقـــــكَ
أنـــتَ البـــديعُ للوُجـــو	:::	د.. قـــدْ تجَلـــى فـــضْلكَ
أرْجـــوكَ هَـــدْيا.. إنـــني	:::	حقـــا رَغبـــتُ قرْبـــكَ
أنـــتَ العَلـــيمُ.. وَالخفـــا	:::	يـــا كُلـــها.. كـــشفٌ لـــكَ
إنْ كُنـــتُ صـــدْقا فاهْـــدِني	:::	إني رَجَـــوْتُ حُبـــكَ
أنـــتَ مَليكَـــي.. والحَيـــا	:::	ة وَالمَمـــاتُ أمْـــرُكَ
وَالإنبعَـــاث يـــوْمَ نـــشر	:::	للحـــساب شـــأنكَ
وَالجَنـــة مـــنْ فـــضْلكَ	:::	وَالنَـــارُ دارُ عَـــدْ لـــكَ
بالفـــضْل رَبي وَالـــني	:::	حـــتى أَنـــال وُدَّ كَ
بـــالقرْبِ مِـــنْ خيْـــر الـــوَرَى	:::	حَيْـــثُ جَعَلـــتَ سِـــركَ

* * *

تتمة الإعجاز في البعث بعد الموت

كيف يُصَيَّرُ الجسم بعد الموت إلى رفات؟!!..

علمنا مما سبق بيانه أن الإنسان مخلوق بلا جدال من نبت الأرض ماءً وترابًا، وكان غذاءُه (فاكهة كانت أو حبا، أو لحمًا، أو أسماكًا، أو شرابًا) أيضا من نتاج الأرض.. فجسم الإنسان - بعد خروج النفس منه مغادرة إياه إلى عالم البرزخ - يبقى في الأرض حيث يقبر في مثواه الذي كان منه جاء{وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾} [نوح: ١٧ - ١٨]..

وهذا الجسم المقبور ما هو إلاّ مخزون متبقي مما كان منه بناؤه من شتى أصناف الغذاء والماء - التي كلها جميعا من نتاج الأرض - وها هو قد عاد إلى الأرض التي منها كان.. ثم يتبخر ما كان متبقيا فيه من ماء (رويدًا رويدًا) فيتصاعد بخرًا إلى السماء حيث شاء الله ﷻ له أن يُخْتَزَنَ فيما قدر له من مقر لخزنه إلى يوم الدين؛ وتبقى رفات الجسم جافة مطحونة الذرّات في أدق وأنعم ما تكون من دقة.. ومع مرور بعض الزمن تضيع تلك الرفات في الأرض ممزوجة بترابها، تائهة المعالم، مغيبة الماهية إلاّ " عَجْبُ الذنَبِ ".. وعجب الذنب هذا هو أصغر فقرة في العامود الفقري وأدقها على الإطلاق، ويقع في منتهاه (فلا تأكله الأرض ولا يضيع).. عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ في حديث من صحيح مسلم:(..... وليس من الإنسان شيءٌ إلاّ يَبْلَى إلاّ عظمًا واحدًا وهو عَجْبُ الذنب.....).. ويكون هذا الحال حكمًا مسحوبًا على جميع من يموت، حتى لو كان موته

فـي بحـر أو محـيط.. فالبحـار والمحيطـات كمـا الأنهـار هـي مـن أصل الأرض (فيما سبق بيانه في موضعه)..

كيف يبعث الناس يوم القيامة؟!!..

يحـدثنا مخبـرًا عـن ذلـك رسـول الله ﷺبقولـه: (مـا بـين النفختـين أربعون.. ثم ينزل الله ﷻ من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل.. وليس من الإنسان شيء إلاَّ يبلى، إلاَّ عظمًا واحدًا وهو عَجْبُ الذنَبِ ومنه يُـرَكَّـبُ الخلق يوم القيامة).. وهذا معناه أن الماء الذي يأمر الله ﷻ بإنزاله يوم القيام ما هو إلاَّ الماء الذي كان قد تبخر من الأموات بعد دفنهم لتُـصَـيَّـرَ أجسامهم رفاتًـا (وكان مختزنا في السماء).. وأن النبت الذي ينبت منه الناس ما هو إلاَّ **عجـب الـذنب** الذي قال عنه رسول اللهﷺ في الحديث المذكور أعلاه (ومنه يُرَكَّبُ الخلقُ يوم القيـامة)..

وهذا تصديق صريح موثق بالآية الكريمة{ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ } [فاطر: ٩] والآيات الواردة في هذا المعنى كثيرة..

ومن هذا نرى أن الله ﷻ يوم القيامة يأمر بهذا الماء المختزن في السماء فينـزل إلـى الأرض مطـرًا من حيث كـان مخزونًـا إلـى حيث كان قد تبخر من قبل؛ فينبت منه عجب الذنب الذي يخص كل جسم من أجسام الأموات.. ثم يجذب إليه ما يخصه من رفات جسمه البالي (كما يجذب المغناطيس نشارة الحديد التي هي من جنسه) فتستجيب له وتـنجذب إليه جميعا ويتشكل كل جسم على ما كان عليـه من هيئة وقت موته.. ويأمر الله ﷻ بالنفوس من عالم البرزخ فتحضر جميعا وتسكن كل نفس جسدها الذي ماتت عنه وقت ما ماتت لتُبْـعَـثَ فيه

مرة أخرى؛ ويهبُّ الناس جميعا منتشرين.. ويشير إلى ذلك الحديث الشريف: (والذي نفسي بيده لتموتون كما تنامون، ولتبعثون كما تستيقظون).. وصدق الله العظيم{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾} [طـــه: ٥٥]..{وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾} [نوح: ١٧ - ١٨]..

* * *

مثل الموت.. ومثل البعث

اللّيـــلُ للأحيـــا ســـكنْ ::: والنـــوْمُ فيـــه مُـــسْتكَنّ
للمـــوْت – حـــالاً – مُـــثلنْ ::: كَـــيْ يـــتعظ مَـــنْ يعْقلـــنْ
والـــصُّبْحُ نـــورٌ مُـــرْ تَجًـــى ::: الـــسَّعْيُ فيـــه مُرتَـــضيً
للبعـــث – نـــشْراً – مُـــثلنْ ::: كَـــيْ للحـــساب نَـــذ كُـــرَنْ

* * *

الخاتمـة

أسـرار الآيـات
في حلق الإنسان
والكائنات

الخاتمة

أخي القارئ:

لقد تعددت وقفاتنا على مواطن إعجاز شتى؛ طُفنا عبرها بمنازل تبدو متباينة لمن يلحظها لأول مرة؛ مختلفة المظاهر، متعددة الهيئات والأشكال من عوالم مختلفة.. فهذا إنسان يمشي بساقين محمولتين على قدمين، ممشوق القامة، سوي البنية.. وهذه أنعام تمشي على أربع للإنسان ذللت في قوة لو سمح لها لفتكت به.. وهذا نبات مختلف الهيئة والتكوين (ثمار على أشجار وحب متراكب في سنبله).. وماء يتحول من ملح أجاج إلى عذب فرات).. وأشجار خضراء لدنة من حك بعض أغصانها ببعض تتولد النيران.. وهذه حياة رغيدة مرفهة يتلوها موت وسكون، ثم بعث ونشور.. أحوال مختلفة في تباين صارخ.. وبالفحص والدراسة نفاجأ بوحدة انتمائها، واتحاد عناصر تكوينها أصلاً وابتداءً.. غاية وانتهاءً.. إنها الأرض!!.. نفاجأ عبر الوقوف على كل محطة من محطات الإعجاز بأن الجميع من الأرض نشأ وإلى الأرض يعود.. إنها قمة الإعجاز في آيات جليات من آيات الله ﷻ.. أبدعها بحكمته.. وأتقنها بعلمه.. وزينها برحمته..

وقفنا على ما هدانا الله ﷻ إليه من محطات إعجاز أخذت بزمام عقولنا، وسلبت منا مدارك أفهامنا، وأغوار مداركنا.. بصَّرت فينا عيون القلوب، وأضاءت فينا أناسي الأبصار.. أيقظت فينا النهى من غفلته.. وحركت في نفوسنا نشوة العمل بحثا عما وراء المخلوقات من خفايا الأسرار تقربا إلى الله ﷻ من خلال طاعته سبحانه فيما أمرنا به من تدبر وتفكر فيما أودع أمامنا وحولنا من آيات خلق معجزات، وآلاء آياتٍ تطل علينا من عل جليات واضحات.. وقفنا

سويًّا بمنزلـة دقيقٌ أمرها بل بلغت من الدقة غايتها، ومن العجب ذروته.. ولا يبدو ذلك في جلاء إلاَّ لمن يراودها تأملاً ويدمنها تدبرًا؛ إن أراد لها فهمًا، أو ارتجاها تحقيقا!!.. إذ كانت في تصنيفات وأفهام من سبقونا، في سالف العصور والأزمان لنا من خوارق الغيب.. على غير وعي أو إدراك.. فلم يُعمِلوا فيها إرادة، ولم يبذلوا في أمرها فكرًا.. وإذ بالخالق المبدع ﷻ يسمح لنا في عصورنا هذه بما ضن به على من سبقونا من علمه ليكشف لنا بعضًا من أسرارها.. وإذ بنا باكتشافات أسرارها نزداد حيرة.. أجزم أنها فاقت حيرة من سبقونا.. إذ أنهم سلموا بغيبيتها فاستراحوا.. لم يعملوا لها عقلاً، ولم يشغلوا بها فكرًا، ولم يحفزوا لها ولو خاطرًا.. فهدءوا حالاً، واستراحوا بالاً، ولما هم تعودوه من أمرها خنعوا واستكانوا.. فعاشوا هانئين بما أصبحوا عليه من أمرهم وباتوا.. سلَّموا بواقع حالهم فلم يتخذوا مما يشاهدون للبحث مجالاً، أو للدراسة منهلاً ومِنهاجًا.. فوطنوا أنفسهم على الراحة وعفوا عن عقولهم من مشقة التفكير وعنائه، ووفروا عن الخاطر انشغاله، وخلوا عن الضمير اضطرابه؛ فعاشوا حياتهم في سؤدد ووئام.. لا ينغصونها ببحث أو فحص أو حتى كلام.. عاشوا راضين بما قالوا عليه في اعتقاد راسخ (إنه قسمة ونصيب)..

هذه الآية العظيمة؛ التي نحن بصددها.. هى آية النسل والتناسل بين الأزواج!!.. يقترن أحدهم بما أحب واختار من الإناث؛ فيبني بها وقتما شاء؛ فيرزقه الله ﷻ الولد (أنثى كانت أو ذكر).. وقد يختار ويحب ويتزوج من أحب ولا يرزق منها شيئا!!.. فلا يضجر ولا يغضب ولا يثور.. تعودوا ذلك ولم يتأففوا منه، ولم يكلفوا أنفسهم الوقوف عنده؛ عجزًا منهم عن إدراك أسرار ما يجدون ويعايشون..

يلحظون هذا الأمر تكرارًا وإياه يرقبون، ولا يجدون له سببا واضحا، أو بصيصا من إشارة أو بيان.. يتزوج أحدهم فيقذف بنطفته في رحم امرأته.. فيرزق إثر ذلك منها الولد.. وقد لا يكون!!.. ما سبب هذه المفارقات التي يشاهدونها؟!!.. إنهم عن يقين لا يعلمون؟!!.. فكانوا على شماعة الغيب لهذا الأمر يعلقون ولا يسمحون لأنفسهم أن تخوض فيه ألسنتهم أو عنه يتحاكون.. إنه غيبٌ.. ولا يعلم الغيب إلاّ الله ﷻ علاّم الغيوب!!..

توالت العديد من الأزمان وترادفت بالناس العصور إلى أن أذن الله ﷻ بهذا الكشف العلمي الخطير ليكشف لنا بعض أسرار هذه النطفة الدقيقة بما هدى إليه علماءنا من صنع (المجهر) العجيب لنرى ونعاين من خلاله، وعبر عدساته عجيب الأسرار ودقيقها في شأن هذه النطفة المتمثلة في نقطة ماء صافية، وفيما تحتويه من عجائب المخلوقات الدقيقة التي تُعَدُّ بمئات الملايين، تسْبح فيها ملتزمة حيزها ولا تتعداه إلى خارجها أبدًا.. وتتحرك ساعية على الدوام.. لا يُرى منها ولا يلاحظ غير ظاهر هيئة هيكلها.. ولا يدرك من أمرها إلاّ نشاط حركتها، ودائب سعيها في حيز بيئتها هذه المَهينة الرَّقيقة.. في تطواف دائم بعضها ببعض في حرص عجيب - لا يصدر إلاّ عن صاحب عقل مدبر فقيه - على ألاّ تتجاوز أيها حيز هذه النقطة من الماء.. لأنها تعلم أن تجاوزها والخروج منها لا يعني سوى الموت لها والهلاك!!.. فمن ذا الذي علمها ذلك وبث فيها العقل والإدراك؟!!.. سبحان الله!!.. إنه الله الذي خلقها وهداها إلى كيفية ا لمحافظة على حياتها وحيويتها إلى أن تبلغ غاية ما أراد الله ﷻ لها مَنْ الأمر وشاء!!..

هذا عن ظاهر تلك الكائنات البالغة الدقة والرقة؛ التي تبدو تحت

المجهر بالغة العجب هيكلا وهيئـة.. أمـا عن كـوامن بواطنهـا ومـا تحويه.. ففيها الأعجب من الأسرار التـي تحير النهى بمـا تضم من دقيق الإعجاز إبداعًا وبلاغة وقدرة!!.. ويبدو أن مـا فتح الله ﷻ لنـا من أبواب العلم بشأنها؛ ممـا أصبح مطروحًـا تحـت عقـول العلمـاء ومداركهم مـا هو إلاَّ القليل، وإن كـان يبدو لنـا علـى عظيم الأهميـة والخطورة بمكان على قدر ما سمح الله ﷻ لنـا باكتشافه وثبر أغوار خفاياه.. ولقد وقف العلماء على عتبـة بـاب القدرة إلـى هذا الحد فـي عجـز عـن إدراك المزيـد (ومـا أكثـره) إلـى أن يـأذن الله ﷻ للأجيـال اللاحقة علينا من ثبر أغوار محيطه وخفاياه!!.. فلقد جعل الله ﷻ لكل عصر رجالا، ولكل زمن حظـًا من الكشف تطورًا؛ رقيًّا وعلمًا إلـى يوم الدين!!..

ولعلك توافقني في أنه ليس من القلة أبدًا ما تم حصره من أبـواب التخصص العاملة فيما تم كشفه من أسرار تلك النطفة ومحتواهـا.. ومـا توصـل إليـه العلـم فـي هذا المجـال ليست قليلـة ولا هينـة؛ فلقد تشعب عن المحتوى الدقيق لمكونـات تلك النطفـة المهينـة الكثيـر من الأبـواب فـي مضمار علـم الأحيـاء، والتشريح، والأجنـة.. ومـا أدْرِجَ تحت عناوين هذه الأبواب يمثل في العدد الكثير من الفصول، وكلهـا تـأتي تحت عنـوان (النطفـة) ومـا تحويـه!!.. ولكـل عنـوان مـن هـذه العناوين التـي سـأذكرهـا لـك أبطـالها وجنـودها - الـذيـن قـضـوا أيام أعمارهم ولياليها حُـقَّدًا لاهثين إلى أن توصلوا إلى ما أصبح بين أيـدينا مـن الأسـرار جليـا واضـحا - مـن العلمـاء والأطبـاء المتخصصين.. إذ ثـابروا علـى تتبعهـا أثرا تلو أثـر.. وكلمـا أدركـوا شيئًـا مما كان عنهم فـي غموض وخفـاء تشنفوا إلـى معرفـة مـا بعده لعلهم يتوصـلون إلـى مـا وراءه كشفًا من بعد كشف للأشيـاء التـي

يقفون أمامها متسربلين بعجزهم، في خشوع لربهم ﷻ..

وأسوق لك من عناوين الإعجاز هذه.. قصة الخلية التي ينشأ منها الولد.. وقصة الجهاز العصبي بنوعيه الحسي والحركي، وأدوات الوصل بينها من خطوط الاتصال والربط البالغة الدقة والعجب في آن واحد مما تذهل له ومنه العقول!!.. ناهيك عن قصة الصبغيات، أو ما يسمى بـ (الكروموزومات) المختصة بعوامل الوراثة وما تحمل من أسرار عظام!!.. وقصة التوريث والتورث التي تحوي من عجائب الأمور ما تحوي.. فلها الكثير من القواعد المعقدة، والمناهج المؤصلة التي تحكم عالم الوراثة.. فهناك قواعد ثابتة - ليس عنها حياد - لما يُوَرَّث للمولود من الأب أو الأم، ومالا يورث من الصفات والقدرات، وكيفية تحديد نوع المولود (ذكرًا كان أو أنثى)، وتحديد الأعمار طولاً وقصرًا (للرجل كان أو للمرأة).. وكل ذلك له أسبابه وشروطه وكيفيته؟!!.. وهناك قصة البويضة الكامنة فيما يسمى بـ (قناة فالوب) استعدادًا للتلقيح المنوي الذكري؛ لتستقر بعد التلقيح في التصاق حميمي بجدار رحم الأم؛ لتتطور في أطوارها حتى يتم تخلق الجنين، وينمو في كمال وتمام إيذانا بخروجه مولودًا جديدًا إلى هذه الدنيا..

فهي في مكمنها مستكنَّة لا تتحرك ولا تغادر مكانها في انتظار لهذا المخلوق الدقيق العجيب الساعي إليها في خفة ونشاط؛ لا يخطئ الطريق إليها (وكأنه قد زارها من قبل مرارًا!!..).. ذلك المخلوق الذي لا يُرى ولا يُميَّز إلاَّ عبر المجهر ومن خلاله؛ الآتي إليها من الذكر ليخطب وُدَّها.. وهو إذ يلِجَها معلنا نكاحها تحتضنه في ترحاب وتحنان ورقة؛ فتغلق - في حرص حميم - دونه الأبواب،

غير سامحة لأحد غيره من إخوته - المقدر أعدادهم بمئات الملايين، والذين كانوا في مضمار التنافس معه في محاولة الوصول إليها - من أن يهتك أحدهم حصنها، أو يخدش تحصُّنَها من بعده؟!!.. وهذا هو ما يُطلق عليه عملية التلقيح؛ الذي يكون من آثاره المباشرة بدء مراحل تكوين وخلق الجنين، الذي يخرج إلى عالمنا بعد نحو تسعة شهور بالميلاد إنسانا سويًا!!.. فسبحان من خلق وقدر وهدى.. سبحان الله!!..

ما سبق كان تلميحًا لمعجزة الخلق نشأة وإيجادًا.. أما بعد الميلاد فهنا من المعجزات الأخرى ما تحار له العقول، ويذهل من عظمته الجنان.. إذ نقف حيارى أمام ما نجد في هذا القادم الجديد إلى الحياة متسائلين.. إذ يلفتنا إليه بعد حين ما نعاينه عليه من فوارق جنسية، وقدرات في بنائه الهيكلي، وإمكانات في مداركه الفكرية والعقلية!!.. تتراوح هذه الفروقات بين تشابهات عديدة للمولود بأحد أبويه أو كلاهما معًا، أو بعض أقاربه، أو بعض أجداده السابقين؟!!.. ناهيك عن عالم التوائم وما فيه من إعجاز وأسرار.. كيف تخَلَّق وتكون، وكم في عالمها من أنواع؟!!.. والكثير الكثير مما ليس هنا مقام الخوض فيه.. ولا مجال تفصيله!!..

ويعبر هذا القادم طور طفولته متجاوزًا إياها إلى مرحلة صباه مارقا بسنوات عمره إلى مرحلة الفتوة والشباب في جلد وقوة.. تغلب عليه في نشاط جامح سمة المغامرة؛ وقد ظهرت عليه ما أنعم الله ﷻ عليه وزوده بها من أجهزة وأدوات لم يكن له - بالقطع - دخلٌ فيها خلقا أو صنعا؛ إذ ما هي إلاَّ منحة منحه الله ﷻ إياها، وهبة خالصة خصه الله ﷻ بها عطية وإحسانا..

والحال به هكذا إذ بـه يبـارز الله ﷻ بتلك المنح والعطايا اقترافا للمعاصي، وارتكابا للذنوب والسيئات والخطايا؛ بدلاً من أن يقدم لـه الشكر على جزيـل عـطـاياه ﷻ بفعل الخيرات تقربا إليه، وأن يقوم بين يديه مقدَّمًا ما يرضيه مـن الإحسان؛ تعبيرا عن الشكر والحمد الواجب لـه سبحانه وعرفانا بمـا يليق بعظمتـه من صـالح الأعمـال والأحوال.. فهل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان؟!!..

وهل يجوز أن نقابل عظمة عطايا العظيم لنـا من خَـلـق وإبداع، ورزق حسن غيـر مقطـوع ولا ممنـوع إلاَّ بعظـيم الخـلـق وحُـسْـن الآداب، من بعد صدق توبٍ إليه ﷻ وحسن مآب!!.. وليكن قدوتنا في ذلك - على قدر مـا نستطيع - نبينـا الحبيب ﷺ طاعـة للقائل ﷻ{ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾} [الأحزاب: ٢١].. والـذي مدحـه ﷻ بقولـه{ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤].. هذا القائل عن نفسه ﷺ [أدبني ربـي ﷻ فأحسن تأديبي].. فالله ﷻعظيم في ذاته.. عظيم في شأنه.. عظيم فـي عطاياه وإنعامـه.. ولا يليـق بنـا إلاَّ أن نتقرب إليـه بأحسن مـا يرضـيه مـن العمل.. والأصدق من الحـال.. سبحانه!!.. كرَّمنـا علـى سائر خلقه، وخصنا بما ضن به على جميع ما عادانا من الكائنات من المكرمات، وأخضع لنا بنعمة العقل كل ما سوانا من المخلوقات مع مـا فيهـا من قوة بَـيِّـنة وضـعف بِنْيَتِـنـا، وزودنـا بـأدوات وأسباب إبراز العظمـة والقدرة عليها جميعـا.. فهل يجوز أن تقابل عظمـة العطايا مـن الله العظيم ﷻ إلاَّ بالعظيم من العمل، وعظيم الاجتهاد في الطاعة؟!!..

* * *

عظمة الخالق فيمن خلق

سرَّ خلق الخـالق فـيمَنْ خلـقْ ::: قدْ تجلـى في آيـات قـدْ بَـدَتْ
كُـلُّ شـيْء يَزدَهـي في خلقـه ::: إنْ رُؤاهُ قـدْ تبَـدَّتْ، أوْ خفـتْ
العَجَـبْ.. في ذرَّة مـنْ قطـرَةَ ::: منْ مَهين المـاء شـبَّتْ وَارْتقـتْ
ذرَّة منـها كَيـانٌ خلـقَ ::: يَحْوي قلبًا خافقـا فيهـا نبَـتْ
وَالُمحَيَّا قدْ حَـوَى العَيْنـيْن بـال ::: نور جَالتْ حَوْلَها.. قـدْ أدْركَـتْ
والأذنُ إذ تسْمَعُ الأصْواتَ فهـ ::: يَ لما قدْ تـسْمَعُ قـدْ مَيَّـزَتْ
وَالهـواءُ داخـلٌ أوْ خـارجٌ ::: سـرُّ رَبي.. في آجـال أ قتـتْ
عَبْرَ أنـف – إذ تنقيـه مـنَ ال ::: أهْبيَـة – بالحـاجزات جُهـزَتْ
إنْ في صَيْف أوْ شـتاء – فـالهَوا ::: ءَ – بقدْر الحاجَـة قـدْ كيَّفـتْ
وَالفمُ منْ كُلِّ صُلب مًـنْ طعـا ::: م التهَمْ.. أسْـنانهُ قـدْ حَطمَـتْ
وَالـشرابُ سـائغٌ أوْ لمْ يُـسغْ ::: فاللـسانُ وَاللـهاة مَيَّـزَتْ
وَاللـسانُ نـاطقٌ.. إذ بالخفـا ::: يا تجَلـى كُنـهُها.. قـدْ بُيِّنـتْ
وَاليَـدان بالعَطايـا أوْ بـبَط ::: ش العدا.. مُدَّتْ لكُلٍّ.. طوِّعَـتْ
وَالـسَّاقان سـاعيان في ثبَـا ::: ت عَلَى أقـدامها قـدْ نـصِّبَتْ
تلكَ بَعْضٌ منْ آيات قـدْ بَـدَتْ ::: وَالكَـثيرُ باطنـاتٌ.. أ خفيَـتْ
وَالفؤادُ ضـخَّ في الجـسْم دَمًـا ::: منهُ أعْضاءُ الجَسَدْ.. قدْ غذ يَـتْ
وَالنـهَى منـهُ تجَلـتْ قبْـضَةٌ ::: فوْقَ كُلٍّ أ حْكَمَتْ.. إذ سَيْطرَتْ
وَالجَميعُ في ثنايـا الجـسْم لـل ::: خـالق ذرَّاتـهُ قـدْ سَـبحَتْ
وَالكتـابُ إنْ وافانـا بالأجَـلْ ::: لبَّت النفسُ الندا.. مـا سَـوَّفتْ
وَالبنَـاءُ إذ تـوَارَى في الثـرَى ::: فالرُّفـاتُ للإلـه سَـبَّحَتْ
وَالبَـداة.. ذرَّة مـنْ نطفـة ::: لا ترَى.. منها صَحائفُ سُـطرَتْ
وَالإلـهُ القـادرُ سُـبْحانهُ ::: آيُهُ عَنْ كُلِّ وَصْف قـدْ سَـمَتْ
للإله نـسْدي حَمْـدًا لا يُحَـدْ ::: إنْ قضَتْ أعْمارنا مًا قـدْ كَفـتْ

وهكذا تبدو قدرة القدير في خلقه.. إن عالم الخلق والإيجاد عالم

عجيب في إبداعه، دقيق في تكوينه؛ يحوي من الأسرار ما يحوي؛ يغطه العلم ويمزجه مزجًا بيد القدرة الإلهية إعجازاً.. وتعمل فيه يد المشيئة أيَّة إعمال!!.. ومن أراد أن يتزود بالكثير، ويتعرف على التفصيل المثير لأي من الأبواب التي إياها ذكرنا فما عليه إلاَّ بالرجوع إلى الكتب والمراجع التي تخصصت في هذا المجال من العلم (أحياء - أجنة - تشريح - فلك... الخ.)؛ ففيها ما يذهل عاديَ العقول، ويثير الشوق دفعًا لمعرفة المزيد من دقيق التفصيل، الذي يضيق به المجال!!.. وما قد ذكرناه في سياق بحثنا ما كان إلاَّ أخذ - من عميق بحوره - بالقليل من القطرات على قدْر الذ كر والمقال، وعلى قدر تبيان المدرك من المقام!!..

وهنا تحضرني تأملات فيما أبدع الله ﷻ عليه الإنسان، وما حاباه به في التصوير من دقة، وما جمله به من لون وسيمة، وما خصه به من قوام.. وإذ بهذا الإنسان يتباهى بما زوده الله به من النعم، فيحيا في هذه الدنيا متباهيا مغرورا.. متعاليا على غيره.. متكبرا على من هو دونه.. متعاظما على أقرانه.. مستقويا على من هو ضعيف.. مزهوا بما وهبه الله من مال على من ليس عنده مال.. قد نسي أو تناسي المنعم الذي زوده بكل ما فيه من ميزات على جميع مخلوقاته، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا.. وكرمه إنسانا على سائر المخلوقات دونه.. وأغدق عليه نعمًا لم يشأ أن يجعلها لغيره.. فعاث غرورًا بحسن صورته.. متغطرسًا بقوته.. وكأنه بلسان حاله ينطق تصرفا وسلوكا كما لو كان هو الذي خلق نفسه.. وتزود تلقائيا بكل ما فيه من قدرات ومقدرات من أجهزة ظاهرة كانت أو باطنة تعمل في خدمته فيتصرف بها تصرف المالك لها؛ في حين أنه لا يملك من نفسه شيئا.. إذ هو بكل ما فيه من أجهزة ومعدات، وآلاء وآيات

مملـوك لخالقـه سبحانـه.. وأنـه هـو نفسـه وكـل مـا يحويـه مـن الـنعم - ظـــــــــــــــــــــاهرة كانـــــــــــــــــــــت
أو باطنـة - أمانـة أودعها الله ﷻ إياه.. وهو يوم القيامـة مسؤول عنهـا بكل يقين وتأكيد، وصدق العلي الكبير{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨} [الانفطـار: ٦ - ٨]..{إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا } [الإســـــراء: ٣٦].. فكيف بك أيها الإنسان إن تخيلت يد الخـالق الـذي أبدعتك من ذرة من نطفة من ماء مهين، وقد أودع فيك عوامل البعثرة والتفرطح فـي خلقك.. بـدلا مـن عوامـل الدقـة والتحسين فـي صـورتك.. وكنـت علـى غيـر هيئتـك.. فـي أي صـورة أخـرى غيـر مـا أنـت عليـه مـن الجمـال والحسن والإنعـام.. أفـلا تتوجـه إليـه بالشكر والعرفـان حـالا وقولا وعملا على ما جعلك عليـه من الخيـر والإكـرام بـدلا ممـا أنـت عليه من الجحود والنكران!!.. حتى إذا ما جيء بك يوم الـدين تكـون مـن أهـل الإيمـان والإحسان سـاكني الـدرجات والغرفـات فـي جنـات الـرحمن.. بـدلا مـن أن تبعـث فـي الأذلـين الخاسـئين، الـذين كـانوا لأنفسهم خاسرين؛ حيث في دركات النيران يُكَبُّون!!..

* * *

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

الآىُ فيكَ يا ابْنَ آدم تنطقُ ::: توْحيدَ ربٍّ.. هُوْ البديعُ الخالقُ
فانظرْ إلى الإعجاز فيك ظاهرًا ::: يُومي إليْكَ.. فيك صُنعٌ حاذقُ
سُبْحان مَنْ حاباك أبْهى هيْأةً ::: سوَّاكَ حُسْنا.. فيك آىٌ تنطقُ
هبْ أنَّ أجْفانَ العُيون قدْ حَوا ::: ها.. اكْتنازٌ بالشُّحُوم مُطبَقُ
أوْ أنَّ أهْدابَ الجُفون قدْ نمتْ ::: كَالشعْرَ في الهامات فجٌّ يَمْرُقُ
أوْ إنْ نمَتْ أسْنانكَ مثلَ النمُ ::: و في العظام.. وهْيَ عظمٌ صادقُ
أوْ زادَ قدْرٌ منْ غذَاء للأ ذُنْ ::: فيه امْتلاءٌ وَارْ تفاعٌ شاهقُ
أوْ باكْتناز الأنف فيكَ كَالجَبَلْ ::: فَيها اختزانٌ للغَذاء سابقُ
انظرْ إلَيْكَ حينَ تبْدُو هكَذا ::: فيكَ النَشازُ وَالنفورُ خانقُ
بَيْتُ الطعام مَخزنٌ في جوْفكَ ::: وَالصَّرْفُ منهُ للجَميع دافقُ
تلكَ المَعيّ للغذاء ماصَّةٌ ::: للنافع منْ كُلِّ شيْء تغْبُقُ
في جسْمكَ كَيْفَ الغَذاءُ وُزِّعَ ::: مَنْ مَخزن في جوْفكَ لاً يَفرُقُ
مَنْ وَزَّعَ قدْرَ الغذاء كَيْ يَفي ::: كُلاًّ بقدْرٍ.. ما طغَى أوْ يَخفقُ
وانظرْ إلى أظفاركَ قدْ سُوِّيَتْ ::: مصْقولة في دقة كَيْ تبْرُقُ
ليْسَتْ بلحْم أوْ بعَظم تُوصَفُ ::: جَلى الذي منهُ العَطاءُ مُغدَقُ
انظرْ إلى الإعْجاز فيكَ – قائما ::: أوْ ما ئلا أوْ راكعًا – لا تدْفقُ
وانظر إلى الأيْدي إليْكَ تخَدمُ ::: في مَطعَم أوْ مَشرَب؛ أوْ تطرُقُ
وَالكَائناتُ للغذاء.. عامَّةً ::: إنْ تشتهي.. مُدَّتْ إليْه الأعْنقُ
وَالكائَناتُ كُلهَا قدْ سُخرَتْ ::: طوْعًا لكَ؛ بالأمْر منكَ توثقُ
منها القويُّ وَالشديدُ الصُّرْعَة ::: بالخوْف منك خضعتً.. لا تمْرُقُ
تبْدي انكسارًا.. بالخُضوع ذ للتْ ::: كَي تعْتليهَا.. وَهْيَ رقٌّ مُشفقُ
للأرْض حَرْثا إنْ تردْها تحْرُثُ ::: إنْ ترْحَلَ فهْيَ الرِّكَابُ السُّوَّقُ
فيها شرابٌ سائغ.. وَمُبارَكٌ ::: – منْ بَيْن فرْث وَالدِّماء – يَدْفقُ
طَعْمٌ لكَ.. وَهْوَ الغبوقُ المُشبعُ ::: فيه الغذاءُ الكَاملُ وَالمُغدَقُ
إنْ قدْ وُجدْ.. فالخيْرُ فيه مُطلقا ::: وَالرِّيُّ فيه.. للظَمي سابقُ
والأرضُ بالماءِ ارْتوَتْ؛ فاسْتنْبتتْ ::: منْ كُلِّ خيْر لِلوَرَى تتفتقُ

إذ قدْ كَستها بـالزُّرُوع خـضرةٌ ::: تعْلوا سيقانا.. قدْ تبَـدَّتْ تمْـرُقُ
قدْ حُمِّلتْ منْ كُلِّ حَـبٍّ يُطعَـمُ ::: يَعْلوها عَصْفٌ في زُهُـوٍّ يُـشْرقُ
قدْ ذ هَّبَتْ حَبَّاتهـا إذ أ نـضجَتْ ::: في سُـنبُلات.. للعُيـون تبْـرُقُ
بُشْراها تسْرى في النفوس بَهْجَـةً ::: منْ خيْرها عَـمَّ الوُجُـوهَ رَوْنـقُ
والأرضُ أضحَتْ بالجَمال تزْدَهـي ::: ترنو إليْها كُـلُّ عـيْن.. تحْـدقُ
جَناهَا مـنْ كُـلِّ لـوْن نمِّقـتْ ::: أشجارُها عَبْرَ الفـصُول تـورَقُ
منْ كُلِّ صنف منْ ثمـار أيْنعَـتْ ::: منْ لونهـا فـاضَ بَريـقٌ فـائقُ
في ظلها تلَقـى النَـسيمَ مُنعَّمـا ::: والشمسُ يَقظى باللـهيب تحْـرقُ
ظلُّ الخمائل قـدْ وَقـاكَ حَرَّهـا ::: يَحْنو عليْـكَ.. بالحَنـان يَغـدقُ
وَقـتَ الهَجـير إنْ إليْهـا تلجَـأُ ::: مَدَّتْ عَليْكَ ظلها.. بـكَ ترْفـقُ
أعْنابُها بَـيْنَ النخيـل أ نـشئَتْ ::: كُلٌّ حـسانٌ.. بالجَمـال تنطـقُ
كُلٌّ لكَ.. طعْـمٌ غـذاءٌ طيِّـبُ ::: بالرِّزْقَ هَذا.. قدْ حَبـاكَ الخَـالقُ
والأنعُمُ منْ كُلِّ لوْنَ قـدْ بَـدَتْ ::: تزْهُو بكَ.. تهْواكَ حُبًّـا.. تعْـشَقُ
إنْ ظاهرًا، أوْ باطنا فاضتْ عَلـيْ ::: كَ سـابغات دائمـات تغـدَقُ
زُيِّنتَ عَقـلاً مُـدْركًا لا يُرْهَـقُ ::: فيكَ الجَمـالُ وَالكَمـالُ الفـائقُ
كُرِّمْتَ فضلاً مـنْ إلـه مُحْـسن ::: فيكَ الترَقي.. وَالمُحَيَّـا مُـشرقُ
هَلاَّ حَمَدْتَ اللهَ حَمْـدًا خالـصًا ::: للأنعُم اللاَّ ئـي عَليْـكَ تغـدَقُ
يا أيُّها الإنـسانُ لا تغتـرَّ فـال ::: فَضلُ العظـيمُ بـالغرُور يُمْحَـقُ
إنَّ الذي أعْطـاكَ كُـلَّ الأنعُـمِ ::: إنْ شاءَ يَترَعْها جَميعًـا.. يَـسْحَقُ

وهكذا طوفت بنا آيات الرحمن جنبات هذا العالَم الدقيق المعجز العجيب!!.. ووقفنا بين يد القدرة الإلهية ساجدين عقولاً ووجدانًا.. خاشعين أجسامًا وبنيانًا، وجلين أفئدة وجَنانًا.. مُبْدين لله شكرًا واجبًا وعرفانًا.. مُسَلمين له خشية وإيمانا.. سجدت بنا العقول والنهى في رحاب ربنا وربها.. فها هي نشأتنا نتابعها بداية.. وهاهي مسيرة أصلنا نُعاينُها تطورًا.. وها هو تاريخنا الذي قُدِّرَ لنا أن نأتي عبره إلى هذه الدنيا؛ من لدن آدم عليه السلام وإلى أن يقوم الناس لله رب العالمين؟!!..

أخي القاريء: في رحلتنا هذه الاستكشافية لبعض أسرار خلقنا شاهدنا بداية نشأتنا التى كان يظنها من سبقونا في عداد الغيبيات ومن خصوصياته!!.. فإذا بنا في حاضر عصرنا هذا وقد أفصح الله ﷻ لنا عنها معاينة وشهودًا عبْر مجهر من زجاج.. هذا الزجاج الذي توصل إلى سر صُنعه من سبقونا بأزمان طاعنة في عمق التاريخ، وأتقنوا صناعته، وتفننوا فيها.. ولكن الله ﷻ لم يشأ لهم التوصل إلى صنع هذا المجهر الذي كان سببًا في كشف ما سمح به لنا من كشوفات.. فسبحان الله رب العالمين، الذي إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون!!.. فكل شيء عنده بميزان ومقدار.. والحمد لله رب العالمين..

وتنقلنا عبر عظيم الآيات؛ إلى حيث بعض منازل الإعجاز ومواطنه فيما حولنا من كائنات؛ رصدًا ومشاهدة ومعاينة وتأملاً.. ووقفنا أمامها مغمورين ببالغ الحيرة، محاطين بسياج من الذهول في مواجهة ما تبَدَّى لنا من أسرار القدرة وطلاقتها، ونحن نتفحص - مشدوهين - ما تجلَّى لنا من إعجازات صارخة عبر الحرث؛ في معجزة الزرع والإنبات!!..

فهذه حبة تُلقى في طين الأرض من بعد حرثها، وتتْرك. فتعمل فيها يد العطن عملها، وتعيث يد الفساد فيها فسادًا، وتعمل يد الزمان - بمرور أيامه - فيها عَطَنًا ونتانة.. وإذ هي وقد بلغ بها الفساد مبلغه؛ وأخذ منها العطن مأخذه. نشاهدها وقد دبت فيها الحياة، وتبدلت من حال الفساد إلى حسن حال، وأرجى مآل؟!!.. وزهت بأحسن ما تكون عليه رونقًا وجمالاً، وتولد عنها من الخير الكثير؛ من بعد مظنة هلاكها، وتيقن خسرانها.. فاقدين أدنى نبراس من أمل في مسيس خيرٍ يُرجى فيها، أو نادرة من جباية قد تُتَوقع منها؟!.. فسبحان من أحياها من بعد موات

وهلاك!. وأنماها من بعد عطن وفساد!!.. إنه الله.. جل شأنه في علاه!.

ونحن في غمرة نشوتنا الإيمانية هذه التي أخذت بلب قلوبنا.. إذ بآيات أخرى تأخذنا إلى الآفاق حيث منظومة صنع الماء؛ الذي نتخذه شرابًا نُذهب به ظمأنا، ونحقق به رواءنا، ونسقي به زراعاتنا وأنعامنا، ونصنع به مشروباتنا، ونُعِدُّ به طعامنا.. لقد شاهدنا مراحل خلقه وكيفية صنعه وإبداعه استخلاصًا وتنقية من ماء البحار والمحيطات الملحة الأجاج؟!!.. وطفنا بما جنده الله ﷻ من عناصر الكون وآياته التي وكَّل اللهﷻ بكل منها دورًا من أدوار إعداده وصنعه.. ولمسنا ما فيها من أسرار تقف أمامها العقول، وتتحير معها الأفهام؛ لولا ما سمح الله ﷻلنا به من فيوضات علمه كشفًا وتبيانًا؛ ما أدركنا معه ترتيب الخطوات ومنطقية المراحل التي يمر بها حتى يصل إلينا في سهولة ويسر عذبًا فراتًا سلسبيلا!!.. هذا الماء الذي أراد الله ﷻ له وشاء أن يكون هو أصل كل الأحياء{وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ} [الأنبياء: ٣٠].. فالماء العذب نتاج أدوار دقيقة ومتفاعلة من مخلوقات عديدة كما شاهدنا (من بحار ومحيطات ذات مياه مالحة مُرَّة، وشمس ذات أشعة ملهبة حارقة، وسُحُب تتكون من أبخرة من مسطحات المحيطات صاعدة؛ وإلى طبقات الجو العليا ذاهبة؛ ورياح تجمع متناثرها من أرجاء الفضاء؛ فتركمها كالجبال، ثم تحركها وتسيرها إلى حيث يشاء الله ﷻ لها؛ ثم تسكن بأمره ﷻ، وتتوقف؛ وحين توقفها تتقطر السحب ماءً عذبًا فراتًا؛ تستقبله الأرض وتستحوذ عليه اختزانًا في باطنها؛ يستخرج الإنسان منه على قدر حاجته عبر الأبار صالحًا نقيًّا، عذبًا مستثاغًا؛ في غير مشقة أو معاناة!فسبحان الله ذي الرحمة العامة السابغة على الخلق أجمعين!!.

وكما ترى.. لقد كانت رحلتنا هذه عبر أنفسنا؛ وأسرار خلقنا..

مرورًا بما حولنا من كائنات.. وتعلقنا وإياها بآيات في السماء تمثل إعجازاً تلوَ إعجاز ما بعده إعجاز.. وإذ تباح الأسرار بأمر علام الغيوب بما كان مغيبا عنا؛ فنرصده ظواهر محسوسة، وآيات مدركة تكاد تكون من أيادينا ملموسة.. غير أني أكاد أجذم بعد هذه الرحلة الممتعة حقا أيَّة إمتاع؛ والمثيرة جدلاً أيَّة جدال؛ أن ما خفِيَ من الأسرار - على الإطلاق - هو الأعظم.. وقد يتكشف لمن يأتي بعدنا من البشر، ما هو أدق وأرق مما سمح الله ﷻ لنا به من فيض علمه في تركيبات وتكوين عناصر المخلوقات وجزيئاتها بأدق ما قد تَكَشف لنا في هذه العصور من تفاصيل.. مما قد يتبين معه لمن يعايشها في الأزمان القادمة أن ما كان كُشِف لنا من تفصيل لم يكن إلاَّ مُجْمَلات، وأنها لم تكن لتمت إلى التفصيل - الذي نظُنُّه - بصلة، وسبحان من اختزن لكل عصر علمه وعلماءه، ورَجَّلَ لكل زمن جنده ورجالَه!!..

وفي ختام جولتنا المحدودة هذه.. لا بد لنا من التيمم نحو أمر عجيب لا يجوز لنا مغادرة هذه الرحلة دون الوقوف أمامه.. فهو يحوي من العجب العجاب الذي يأخذ بنا عبر هذه الرحلة الاستكشافية المعجزة لخلق الإنسان ومقومات حياته، لافتا إيانا إلى سرٍّ عظيم أودعه الله ﷻ وجلاَّه في صنفٍ من الأشجار الخضراء الرعودة.. إذ خبأ لنا فيها أسباب المتعة من الدِّفء، وإعداد الطعام وطهيه، وإعداد مشروباتنا الدافئة.. ألا.. إنها النار!!.. تلك التي جعلها الله سببا لتمام متعتنا في الحياة الدنيا، كما جعلها أداة زجر لنا وتخويفٍ وترهيبٍ في الآخرة.. وسبحان من جمع الأضداد في وعاء واحد.. فهذه الأشجار الفارعة المورقة؛ إذا أخِذ بعضٌ من أحد فروعها الخضراء المترعة بالماء وحُكَّ في بعضها الآخر، يُتَوَلَّدُ منها الشررُ فيما بينها؛ فتُشْعَلُ منه النار.. ويوقد منه الخشب الجاف والحطب لزوم طهي الطعام، وإعداد الشراب، وتدفئة البيوت والأجسام؛ في صقيع

ليالي وبردها، وزمهرير الشتاء وقسوته.. ويضفي علـى النـاس مُتعـة وراحـة وأمانـًا فـي مستقر حواضرهم، وللمقوين " المرتحلين " في خِضـمِّ حط رحالهم من صحارى ورمال.. وسبحان الله رب العرش والأنام!!..

* * *

الحق المطلق . . للخالق الحق

يامَنْ تجَلـىَّ بالخـضوع خَلقـكَ ::: بالأمْر " كنْ " .. لبَّى الجَميعُ أمْرَكَ
مَيَّزْ تنا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قـدْ خُلـقْ ::: أكْرَمْتنا بالـسَّابغ مـنْ فـضْلكَ
بالأمْر " كنْ " أنتَ خَلَقتَ كُلَّ شيْ ::: إلاَّ نَا إذ.. أوْدَعْتَ فينـا سـرَّكَ
سَـوَّيتنا بالأيْـد منـكَ صـورةً ::: فاضَتْ جَمالاً منْ بـديع صُـنعكَ
فـضَّلتنا بَـيْنَ الخَلائـق كُلـهمْ ::: ياربَّنا.. بالنفخَـة مـنْ رُوحـكَ
والنفْخة فينا سَرَتْ واسْتنهَـضَتْ ::: عَقلاً يَتيـهُ.. في بُحُـور علمـكَ
أنتَ البَـديعُ للـسَّماوات العـلا ::: والمُحْتوى.. والأرْض منْ إبْداعكَ
والكوْن كُل.. ما عَلمْنَـاهُ ومَـا ::: لمْ نعْلم.. مَهْما بَدَى.. خَلقٌ لَـكَ
الجنُّ بـاتَ في خـضوع راكعـا ::: والإنسُ خَرَّ سـاجدًا قرْبًـا لَـكَ
والطَيْرُ كُلٌّ.. والدَّوابُ والوُحُـو ::: شُ في الفلا.. قدْ سَبَّحَ كُـلٌّ لَـكَ
في ذكْركَ.. صارَ الخشوعُ سـيمَةً ::: للخَائفينَ.. مـنْ جَـلال أمْـر كَ
والسِّرُّ والأخفىَ منَ السِّرِّ جَمـي ::: عٌ واقعٌ مُنذَ الأزَلْ.. في علمـكَ
إنْ في جَماد، أوْ نبـات، أوْ هَـوا ::: م، أوْزَواحفَ.. لمْ تغبْ عنْ طَوْلكَ
حَتىَّ الْجُذورَالسَّالكات في الثـرَى ::: الناشطات في امْتـصاص رزْقـكَ
أنتَ السَّميعُ والبَـصيرُ والعَلـي ::: مُ.. قدْ أحَاط كُلَّ شَـيْءٍ علمُـكَ
إذ كُـلُّ دقٍّ ظـاهر أوْ بـاطن ::: الخافىُ.. وَالبادىُ كَـشفٌ لَـكَ
العـزَّة والعظمَـة والكبْريـا ::: ءُ والتعالي.. كُلـها حكـرٌ لـكَ
مَنْ يَجْترىءْ.. أنْ يَقتربْ منْ أيِّها ::: ذاقَ الهَوانَ.. منْ عَظيم بَطـشكَ
بـاتَ ذَلـيلاً دَثرَتـهُ خِـسَّةٌ ::: إنْ ماتَ يَهوي في سَـحيق نـاركَ

أنتَ القديرُ القـادرُ.. والمُقتـدرْ ::: نحْنُ الضِّعافُ.. آملـونَ عَفـوَكَ
أنتَ الرَّحيمُ والرَّءوفُ والحَكَـمْ.. ::: بالعَدل أنتَ قدْ أقَمْـتَ مُلكَـكَ
حَرَّمْتَ ظلمَ الظَّـالمينَ في الـوَرَى ::: .. بالعَدْ ل وَالميزان.. عَمَّ حُكْمُكَ
يا مَنْ أحاط كُـلَّ شَـيء علمُـهُ ::: يا مُحْصيًا منْ كُلِّ صَوْت سَـمْعُكَ
يا مُدْركَ الأبْصار.. حَصْرًا.. كُلها ::: وَهىَ التي مَنْ ذاتكَ لَـنْ تـدْركَ
اللهُ يا مَنْ؛ أنتَ الفـرْدُ الـصَّمَدْ ::: يا مَنْ بعزٍّ.. قدْ تـسامَتْ ذاتـكَ
اللهُ يـا مَـنْ لمْ تلـدْ أوْ تولـدُ ::: اللهُ يا مَنْ لـيْسَ شـيْءٌ مثلـكَ
أنتَ خَلقتَ كُلَّ شَيء.. مـنْ أزَلْ ::: أنتَ المَليكُ.. والجَميـعُ مُلَكُـكَ
حَـقٌّ لـكَ أنْ تعْبَـدَ لا تـشرَكَ ::: نحنُ العبَادُ خَلقكَ.. ملـكٌ لَـكَ
إنْ قلنا نحْـنُ الطـائعينَ.. رَغبَـةً ::: في جَنةٍ.. أوْخوْف حَـرْق نـاركَ
إنا إذَنْ.. بـالظلم حَقـا نوصَـمُ ::: إذ أنَّ كُلَّ الطاعَـة مـنْ حَقـكَ
أمَّا الجنـانَ والنعـيمَ مـا تـرَى ::: إنْ قدْ أُ صبْنا؛ فهْيَ بعضُ فـضْلكَ
ماذا صَـنعنا إذ عَبَـدناكَ سـوَى ::: إحْقاقَ حَـقٍّ قـدْ عَلمْنـاهُ لـكَ
الطاعـة فـرْضٌ عَليْنـا نحْـوكَ ::: إنْ تـأمُر.. أوْ لمْ تـترِّلْ أمْـرَكَ
أبْدَعْتنا منْ غيْـر شـيْء سـابق ::: أكْرَمْتنا إذ كُنـا بعـضَ خلقـكَ
أنتَ البَـديعُ للـسَّموات العُـلاَ ::: كُلُّ الوُجود منْ بَـديع صُـنعكَ
حَقٌّ عَليْنـا الطاعَـة؛ عَـصْياننا ::: جَهْلٌ بنا؛ والأمْـرُ مَتـرُوكٌ لـكَ
يا مَنْ أحاط كُـلَّ شـيْء علمـهُ ::: إنْ تأ خُذ.. أوْ تغفرَ.. ذا شـأنكَ
يا مَنْ وَسعْتَ كُلَّ شـيْءٍ رَحْمَـةً ::: كُلُّ الرَّجـاء.. أنْ ننـالَ عَفـوَكَ

أمَّـا بعد

أخي القارئ:

لقد جبل الله ﷻ جميع مخلوقاته على بُدِّيَّة وقوع النهاية لكل ما كان له بداية من خلقه.. وهذا أمر حتمي كتبه الله ﷻ على جميع الخلق، وهذا من البديهيات التي لابد منها ولا شك فيها.. ولذا كان من المسلم به أن يتوِّجُ الموتُ حياة كلِّ مخلوق.. كائنـًا مَن كان وما

كـان.. سـعيا مقدَّرًا إلـى الحـشر العظـيم يـوم الـدين حيـث القـصاص والحساب.. وإثابة من أحسن وإيقاع العقاب على من أساء..

ولمَّـا كـان جميـع الخلـق - بـلا اسـتثناء - يقـع تحـت حتميـة هـذا الحكم، وإلى هذا المآل المقدَّر صـائرين.. فكان من الضروري، ومن الأهمية بمكان التذكير - بإلحاح مصبوغ بصبغة التشديد والإصرار - بنهاية كل إنسان، وبمـا هـو سـاع إليـه من نهايـة أجلـه فـي هذه الحيـاة الـدنيا بنفـاد أيـام عمـره؛ بانتهـاء أنفاسـه وإزهـاق نَفْسِه؛ حيـث يلقـى الموتَ تتويجا لمشواره في هذه الحياة، وإذ بالموت في آخر الطريق يتلقفه ويلقاه!!..

ولذلك نلاحظ أننا بعد أن طفنـا مع هذه الآيـات العظيمـة الخطـر، والـشديدة الحـذر.. بدايـة بمعجـزة النـشأة والإيجـاد، والخلـق والإبـداع لبني الإنسان.. مرورًا بمراحل الإعداد والتكوين للأسباب والمسببات الـضرورية للحيـاة، وأدوات وعناصـر لـزوم اسـتمرارها مـن طعـام وشـراب وتدفئـة وإيقـاد.. وصـولا إلـى نهايـة مطـاف الإنـسان، وآخـر مراحـل أطـواره المتعلقـة بهـذه الحيـاة الـدنيا؛ مودِّعًـا إيَّاهـا بمعالجـة سـكرات المـوت الـذي لـيس منـه مهـرب ولا مفـر!!.. هـذه الحالـة الغامضة المغيبة عن الكثيرين الذين يتناسونها عن عمد أو عن غير قصد؛ خوفـًا من وقوعها بهم أو منها تخوفـًا.. كرهًا من أنفسهم أو لها استكراهًـا!!..

غيـر أننـا عبـر هـذه الآيـات الجليلـة القـدر نـرى ونـشاهد بعيـون بصائرنـا، ونتسمع منصتين بمسامع قلوبنا مـا سمح لنـا بـه المولـى ﷻ مـن مـشاهدةٍ وسـماع؛ فنعـايش بعـضًا ممـا يلاقيـه الإنـسان عنـد احتـضاره، خاضـعا لرسـل الله ﷺ وهـم يعـالجون نفـسه.. يتنـازع سكرات المـوت وهـي تتنازعـه.. ومـا يـصاحب ذلـك المـشهد المهيـب

والرهيب من طلائع الآخرة وبوادر قدومها عليه وإقباله عليها من مبشِّراتٍ بخير المنازل وحُسن المآل لمن آمن وعمل الصالحات قبل الموت.. ومن شرِّ المنازل وسوء المآل لأهل السوء والضلال، والفسوق والعصيان، والشرك والكفر والإنكار!!.. أهل الكبر والتكذيب؛ تبكيتا بهم تمهيدا لما ينتظرهم من سوء المنازل في أسفل دركات الجحيم وسعير النيران!!..

هذه كانت رحلتنا مع عظيم الآيات التي عرضت لنا بحق وصدق، عرض شاهد العيان.. ونقلت لنا عن جدارة ويقين نقل الرائي المتمرس، والراوي المتيقن.. معجزة الخلق والتكوين، وإبداع النشأة والإيجاد لنا ولما نعايشه ونحياه من أسباب تناسلنا واستمرارية تواجدنا وتخالفنا في هذه الحياة وعلى هذه الأرض من نقطة بدء التكوين والإنشاء.. وحتى نقطة الرحيل من هذه الدنيا مرورا إلى عالم البرزخ بالإماتة بعد الإحياء في طريقنا إلى يوم البعث والنشور من القبور إحياءً مرة أخرى من بعد موات!!.. مع بيان ما سوف يؤول إليه كل منا من مصير، وما يلقاه من نزل وقرار؛ حسب ما كانت عليه حركته وتصرفاته ونيته، والخافي من ضميره، وما كان عليه من حال في حياته الدنيا من صالح عمل وإيمان، ومن تسليم لله ﷻ وإذعان.. أومن فساد عمل وإفساد، وتكذيب وعناد، وكفر وإشراك ممن ظلم نفسه، وركب سفينة غروره، وامتطى خيل لهوه وفجوره من بني الإنسان؛ فضاع مع من ضاع، فأصابه الهلاك، ووقع به الخسران؛ جزاء ما أصر على ما كان عليه من الضلال والنكران، وعدم استجابته للنصح والوعظ، والتذكير والتحذير من مغبة العبث والطغيان..

أرجو الله ﷻ لي ولك الهداية من العصيان، والعون على حسن

العبادة له ﷻ بـالإخلاص والتقيـان، ويكتـب لنـا أجـر السبق بالإحسان فنكون بفضله ﷻ فيمن سبقت لهم منه ﷻ الحسنى؛ فيـكتنفنا برحمته، ويلحظنا بعين وُدِّه ورأفتـه، وحـفـظـه وعـنايته، ويتغشانا بسابغ

رضـاه؛ فنكـون فـي أهـل قربـه ومحبتـه، آمنـين مرضـيين، مـع أصحاب النفوس المطمئنة؛ الذين يسكنهم جنة فردوسه الأعلى تحت عرشه ﷻ في مقعد صدق عند مليك مقتدر.. اللهم آمين.

حسن عابـد

* * *

السيرة الذاتية

- الاسم: حسن محمد صبري عمر عابد.
- الشهرة: حسن عابد.
- الميلاد: ٢٨ - ١١ - ١٩٤٤ م (المنصورة - دقهلية) جمهورية مصر العربية.
- الدرجة العلمية: دبلوم الدراسات العليا في التربية ١٩٧٤م - جامعة الزقازيق.
- العمل: عمل بالتعليم، وتدرج في عمله حتى أحيل إلى المعاش على درجة مدير عام.
- الإقامة: محافظة الشرقية - ههيا - منزل ١٢٤ شارع مصطفى كامل - بجوار " كوبانية شل ".
- صدر له:
  - قلب النبي ﷺ / صادرعن الدار الذهبية للنشر والتوزيع/ ٨ ش. الجمهورية/عابدين/القاهرة ٢٠١٠.
  - ميزان الحب بين الخليل وربه/مكتبة جزيرة الورد/ش. ٢٦يوليو/ميدان الأوبرا/القاهرة ٢٠١٠.
  - سورة يس/فضائلها وبواطن أسرارها/دار الاعتصام/ ٨ ش. حسين حجازي/القصر العيني/القاهرة ٢٠١٠.
  - سورة الواقعة/تطرد الفقر - وتزيد المال/دار الاعتصام/ ٨ ش. حسين حجازي/القصر العيني/القاهرة٢٠١١.
  - أحق الحقوق على كل مخلوق/ديوان شعر/ دار الإسلام للطبع والنشر/المنصورة ٢٠٠٩.

* * *

فهرس الأشعار

* * *

فهرس الموضوعات

* * *